المكون المعرفي
ودوره في توجيه الحضارات

تأليف

الأستاذ الدكتور/ إبراهيم أبو محمد

رئيس مجلس إدارة المؤسسة الأسترالية للثقافة الإسلامية
ورئيس إذاعة القرآن الكريم- أستراليا
ومستشار مؤسسة MCCA للاستثمار والتنمية في أستراليـــا

الطبعة الأولى
١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م



المكون المعرفي

ودوره في توجيه الحضارات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء وإمام المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.. وبعد.

فمما لا شك فيه أن العالم قد شهد في الفترة الأخيرة تقدما هائلا في ثورة المعلومات والمواصلات والاتصالات، وتحول كوكبنا إلى قرية كونية كبيرة، يقع الحدث في مكان فلا يلبث خبره أن ينتقل في لحظات إلى كل بقاع الأرض، مع التفاصيل لما جرى في دقائق معدودة.

وكان يفترض أن تُحْدِث هذه الثورة قربا في المشاعر مثلما أحدثت قربا في الزمان والمكان، غير أن الذي حدث عكس ذلك تماما، فثورة الاتصال قوبلت بثورة "انفصال".. انفصال بالذات في اهتماماتها وحتى في مشاعرها وأحاسيسها عن الآخرين، فلم يعد الشأن العام همًّا يتحمل الفرد بعض مسؤولياته، أو يحظى باهتمامه، أو حتى يفكر فيه.

ومع سيل المعلومات المختلفة تداولت مصطلحات جديدة وانتقلت بسرعة البرق إلى كل مكان في العالم عبر فضائيات في سماوات مفتوحة ومملوءة بأقمار صناعية مملوكة لأغلب الدول المتقدمة، ومن ثم سمع الناس عن أسماء ومصطلحات لم تكن متداولة من قبل مثل: "الشمال والجنوب"، "الجات"، "صندوق النقد"، "البنك الدولى"، "الدول المانحة"، وقد نسمع قريبا عن مصطلحات أخرى مثل: "الدول النائحة"، ودول "الممانعة" "ودول الممايعة"، وغير ذلك من الأسماء والمصطلحات.

ومساهمة في إثراء البحث وتحديد الهدف، وكشف الجذور لحركة السلوك الحضاري في أي من الاتجاهات المتعددة، فقد بادرت -متوكلاً على الله- باختيارهذا الموضوع:

"المكون المعرفي ودوره في توجيه الحضارات"

ويقصد بالمكون المعرفي هنا: "مجموعة المعارف والخبرات التى يكتسبها الإنسان من مصادر متعددة، منها: المشاهدة والتجربة والأخبار المتواترة والتى تصب في نهاية الأمر في العقل لِيُكَوِّن تصورَه وحكمَه على شئ ما"

وسأقسّم الحديث فيه إلى ثلاثة فصول:

الفصل الأول وعنوانه: **المصطلحات بين المرسل والمتلقى**

الفصل الثاني وعنوانه: **أثر المكون المعرفي على العلاقة بين الإنسان والكون.**

الفصل الثالث وعنوانه: **الآخر من هو، وما موقفنا منه..؟**

وإني لنقد الأساتذة والزملاء وتوجيهاتهم لمصغ ومستفيد –شاكرًا وممتنًا– ومعتذرًا سلفًا عن أي خطأ غير مقصود.

والله ولي التوفيق.

الباحث

أ.د إبراهيم أبو محمد

الفصل الأول
المصطلحات بين المرسل والمتلقى

"من المعروف لدى الباحثين أن المصطلحات ليست دائما بريئة، ولا تنشأ من فراغ، وإنما تحمل الخلفيات الثقافية والمكون المعرفي للبيئة التى نشأت فيها، كما أنها عادة ما تكون محملة بطبيعة الصراعات والمصالح لتلك البيئة بشرا ومكانا، ومن ثم تجب عملية الحذر وأخذ الحيطة في تداول وانتشار وشيوع تلك المصطلحات، لأن الأمر هنا لا يتعلق فقط بمصدر هذا المصطلح بقدر ما يتعلق بالهوية الفكرية للمتلقي المستقبل لهذا المصطلح، فردا كان أم مجتمعا وأمة، ولسنا هنا في حاجة إلى التذكير بأن الثقافة الفاسدة تفعل بالعقول والأفكار ما يفعله الطعام المسموم بالجسم، ولذلك كانت العافية الفكرية والثقافية للأمة لا تقل خطرا وأهمية عن العافية البدنية والجسدية لأبنائها، كما أن التشوش وغياب النموذج خلال فترات الضعف الفكري يعرض الهوية لتداخلات مضرة، تسبب تميعا في التصور وازدواجا في السلوك للمجتمع الذي يشيع وينتشر فيه هذا المصطلح.

وهذا في الحقيقة يمكن تلاشيه عن طريق الفرز والغربلة في حالة العلاقات المتكافئة بين الأمم، أما عندما تكون العلاقة قائمة على أساس طرف قوي يفرض قيمه ونموذجه، وليس على الآخرين إلا التلقي والرضوخ، فإن الخطر هنا يزداد ويتضاعف، وبخاصة عندما تكون الحصانة الفكرية والمناعة الثقافية تعاني في مقابل الوافد العاتي ترنحا وإعياء، الأمر الذي ينشأ عنه ويتولد منه غياب مبدأ المقاومة الذاتية المتمثل في قدرة الفرد على التمييز والفرز، ومعرفة الغث من السمين واختيار الأفضل، ومن ثم كانت أهمية المناعة الثقافية التي تحمى هوية الأجيال من الذوبان، أمام تيارات وافدة تخترق الحصون والخصوصيات وتتسلل إلى الناس في مخادعهم، الأمر الذي يجعل من تكوين وتشكيل هذه المناعة ضرورة إسلامية -وهي بالتأكيد ليست جهازا للرقابة والرصد، وإنما هي بيئة تتضمن وتحتوى مناهج تربوية وتعليمية- تساعد المسلم على استقلال الشخصية وبخاصة خلال فترة التكوين العقدي والوجداني، حتى ينشأ الفرد أصيلا لا تابعا، واثقا من نفسه مستقل الإرادة مستقل القرار، له موازينه الواضحة التي يزن بها الأمور فيتحرر بذلك من رق التبعية والتقاليد، والعادات الخاطئة والمحاكاة غير الواعية".

ولقد كان ضمن ما طرح من هذه المصطلحات مصطلح حوار الحضارات، أو صراع الحضارت، وهومصطلح جديد بدأ انتشاره منذ ألقى صموئيل "هنتنجتون" مستشار الإدارة الأمريكية، محاضرة تحدث فيها عن صدام الحضارات، واقترح خلالها على الإدارة الأمريكية أن تبدأ بكسر شوكة الحضارة الإسلامية المقاومة والمستعصية على الذوبان، ثم تعرج بعدها على الحضارة الكونفشيوسية وهي الحضارة الصينية فتحطمها، ثم تستدير إلى كل الحضارات الرافضة لقيمها ونمطها، فتضربها وبذلك تنفرد بزمام الكرة الأرضية، وتقرر مصير العالم وما يجب أن يكون عليه وفق رؤيتها –بعد انفرادها بالسيطرة عليه ووضعه تحت وصايتها. ولقد تلقفت أجهزة إعلامية وأخرى استخباراتية هذا المصطلح، وهي جهات يعنيها استمرار التوترات في العالم، وترتبط مصالحها بتفجير بؤر للصراع لتبقى مصانعها تدفع للجيوش والشعوب والأمم بمزيد من مخزون السلاح، وراحت تلك الدوائر مدفوعة بخيالها الجامح في مزيد من الربح، وتحت سكرة الغرور بالقوة تروج لهذه المحاضرة وتقدمها على أنها أحدث النظريات الاستراتيجية في إدارة الأزمات الأيديولوجية على مستوى الكون. وتطورت تلك المحاضرة لتصبح كتابًا فيما بعد. ولقد ساعد على انتشار مقولة "هنتنجتون" أن الغرب عموما والولايات المتحدة الأمريكية خصوصا كانت بصدد البحث عن عدو تتجه إليه الأنظار، وتشد إليه الأبصار، وبخاصة عندما سقط منافسها، وخلت أرض المسرح العالمي لبطل واحد ووحيد، وراحت دوائر الشر في مراكز صنع القرار وصياغة الرأي العام تعمل على تجهيز المسرح لاستقبال العدو الموهوم؛ ليقوم بدور المنافس للبطل الوحيد حتى يكتمل المشهد الدرامي وتظل عواطف المشاهدين ملتهبة.

وفي ظل ثورة المعلومات، ومع تقدم وسائل الاتصال، كان المفترض أن يتحول العالم إلى قرية كونية واحدة، تظهر فيها روح الجماعة بتعاونها في حل المشكلات الدولية، وإنهاء الصراعات الإقليمية والمحلية وذوبان الأنا ليحل محلها الـ "نحن".

غير أن الذي حدث هو تضخم وتورم الإحساس" بالأنا" بأجندته وأهدافه وقيمه وثقافته،

وحتى نمط حياته الذي يريد أن يفرضه على الآخرين باختراق الحصون، وتجاهل الخصوصيات وقولبتهم وتنميطهم قسرا وقهرا، وظهرت تكتلات الشمال الغني ضد فقراء الجنوب، وتحالفات الأقوياء ضد الضعفاء، واستعملت المنظمات والمؤسسات الدولية في تكريس ضعف الضعيف وتقوية الأقوى، واستغلت قوانينها كستار لتغطية العدوان السافر وتبريره وتمريره، وفى كتابه "OUT OF CONTROL " "عالم خارج حدود السيطرة" يعترف زبيجنيو بريزينسكى المستشار الأسبق للأمن القومى الأمريكى فيقول:"ولننظر إلى الأمم المتحدة والبنك الدولى وهما مؤسستان دوليتان ضخمتان نجحت الولاات المتحدةبفضل خططها واستراتيجيتها المرسومة بدقة وإحكام في التأثير عليهما وتوجيههما في اتخاذ القرارات المتعلقة بشؤون دولية مختلفة لتتطابق مع مصلحتها العامة واستراتيجيتها وخططها المستقبلية"(١).

وطبقت معايير مزدوجة تفتقد العدالة والتبصر، واخترقت دول واحتلت أخرى، وأضحى التدخل السافر في شؤون الدول تحت شعارات مختلفة (حقوق الإنسان، حماية الأقليات، يتم بتصنيف وقرارات من الكونجرس الأمريكي ووزارة الخارجية).

ونتذكر عبارة العلامة سعيد النورسى التى تصور واقع الغرب اليوم وبراعته في قلب الحقائق فيقول رحمة الله عليه : " لقد وضع الظلم على رأسه قلنسوة العدالة ، ولبست الخيانة رداء الحمية، وأطلق على الجهاد اسم البغي، وعلى الأسر اسم الحرية، وهكذا تبادلت الأضداد صورها"(٢).

ويبدو أن أفكار الأحرار الباحثين عن الحقيقة، كثيرا ما تتلاقى وتتعانق، ولا تستطيع الحواجز والحدود أن تسجنها أو تحد من انتشارها، فعالم اللغويات المفكر المعروف

---

١ عالم خارج حدود السيطرة، كتاب نشرته جريدة الاتحاد الإماراتية للكاتب الأمريكى زبيجنيو بريزينسكى المستشار الأسبق للأمن القومى الأمريكى، عرض وتلخيص: هبة الإمام الحلقة ٤ – ٦ ص٢٣، عدد الإثنين ١٤ فبراير ١٩٩٤.

٢ المكتوبات، للمرحوم العلامة الشيخ سعيد النورسي، جزء٢، ص ٦٠٤، دار سوزلر للنشر استانبول، الطبعة الأولى ١٩٩٢.

تشومسكى وهو يهودى أمريكى يلتقى مع النورسى في الفكرة والمبدأ ورؤية الحقيقة، حين يحاول البعض إخفاءها، ويستعمل المصطلح في عكس معناه فيقول: "مصطلحات السياسة لها معنيان، أحدهما معناها المعجميّ المتعارف عليه، والثانى معناها الذي يخدم استراتيجية الأقوى".

ومن ثم فالحرب هى السلام، والحرية هى العبودية، والجهل هو القوة"(٣)، وهكذا كما قال النورسى تتبادل الأضداد أدوارها.

وهكذا وقع العالم في فوضى عارمة، ظهرت فيها مفاهيم ومصطلحات جديدة، فضفاضة المعنى، تُفَصَّل بالمقاس دون تحديد أو تعريف لأي منها غير المزاج الشخصي للدول الكبرى. وأصبحنا نقرأ قوائم تتحدث عن محور الشر، ورعاية الإرهاب، والسلوك المعتدل أو المتطرف لبعض الدول، ونظرية الفوضى الخلاقة، وهي نظرية تختلط فيها كل الأوراق، ويضرب فيها الكل في الكل، دون أن يحكمها قانون غير مصالح الدول الكبرى، على ألا تخرج الضربات عن نطاق الجنوب الفقير البائس.

وظهر الآخر بالنسبة لهم -أو هكذا صورته أجهزة إعلامهم- همجي ومتخلف، لا يعرف الديمقراطية الجميلة، ولا يسمح بحرية الرأي، ولا يحترم حقوق الإنسان، ومن ثم كان على الدول المتحضرة أن تتولى أمره، وأن تحميه من حماقات نفسه، وأن تدربه على التحضر في عمليات الاعتقالات والتعذيب بلا محاكمة، وكيفية إنشاء فرق الموت، وعمليات القتل المنظم لكل طائفة لتضرب الطوائف الأخرى، وليقضي بعضهم على بعض، وأن يمتزج ذلك كله بضرورة تدريسه وتدريبه على الديمقراطية وحقوق الإنسان.

وهكذا تُحْدِث نظرية الفوضى الخلاقة أعلى تجلياتها في الإبداع وخلق واقع جديد تتم صياغته وفق ما تريده وتخطط له مطابخ السياسة لدى السادة الكبار. وكانت العولمة بأبعادها المختلفة إحدى وسائل هذه الدوائر فى تحقيق الأهداف.

من هنا تأتى أهمية الكتابة في هذا الموضوع، تغطية لجانب مهم من جوانب العلاقة بالآخر.

---

٣ ماذا يريد العم سام، للمفكر الأمريكي نعوم تشومسكى ص ٥٥ تعريب المهندس عادل المعلم، دار الشروق ط/ الأولى ١٩٩٨.

ذلك لأنه من الضروري لكل منا وحتى نتجنب حالات -الصراع والصدام- ونتلاشاها، ولكي نقيم حوارًا بناءً يبحث عن الحقيقة ويجليها، غير مصبوغ بأطياف العنصرية والاستعلاء في ألوانها المختلفة، لكي يحدث ذلك، كان علينا أن نسعى سعيًا جادًا لنقترب من بعضنا، وليتعرف كل منا على الآخر.. جذوره وأعماقه، دوافعه وبواعثه، ضعفه وقوته، طموحه وأطماعه.. وهكذا.

ويجدر بنا أن نؤكد أن أخطر ما يهدد الإنسان أو الجماعة ويعزلها هو الشعور بالاكتفاء الذاتي فكريًّا، وعدم الرغبة في قراءة الآخر والتعرف عليه.. وهو شعور خطير ومكلف، قد يؤدي للتقوقع على الذات، أو للصدام مع الآخر والخروج عليه، ما دام سوء الفهم وسوء الظن هو سيد الموقف.

الشرق والغرب في دلالة المصطلح:

الشرق والغرب مصطلح معروف وشائع، وهو يعنى تقسيم العالم إلى شرق وغرب، فهل هذا التقسيم تقسيما دينيا ؟ بمعنى أن الشرق يعنى الشرق الإسلامي، وأن الغرب يعنى الغرب المسيحى؟ أم هو تقسيم جغرافي لا دخل للدين فيه؟

البعض عندما يطلق مصطلح "الشرق أو الغرب" يغلب جانب الدين باعتباره ديانة الأغلبية السكانية، ومن ثم فالتقسيم في نظر هؤلاء دينى لا جغرافي. والحقيقة أن هذا التقسيم تقسيم جغرافي وليس دينيا؛ لأن الأديان كلها نشأت في الشرق ولم تنشأ في الغرب، أما أتباع هذه الأديان فمنهم من اختار المسيحية وعاش في الشرق فهو من أهل الشرق، ومنهم من اختار المسيحية وعاش في الغرب فهو من أهل الغرب، وكذلك الأمر نفسه بالنسبة للمسلمين واليهود، منهم مثلا من اختار الإسلام أو اليهودية وعاش في الغرب فهو من أهل الغرب، ومنهم من اختار الإسلام أو اليهودية وعاش في الشرق فهو من أهل الشرق، ومن ثم فلا علاقة في دلالة المصطلح على الجانب الدينى إلا من باب التغليب.

وقبل الحديث عن الشرق والغرب وموقف كل طرف من الآخر هناك حقائق يجب أن نؤكد عليها وأن ننطلق منها، وهذه الحقائق هي:

١. أن الإسلام كالشمس أو كضوء النهار، لا يستطيع أحد أن يخفيه أو يحجبه عن الناس.

٢. الذين يحبون الظلام ويكرهون الضوء يمكنهم أن يغلقوا أعينهم، أو يغلقوا نوافذهم ويسدلون الستائر حتى لا يروا الضوء، ولكن من المستحيل عليهم أن يحجبوا عن الدنيا ضوء النهار.

٣. الإسلام يعيش بمكوناته الذاتية وسط كل تلك العواصف ولا يحتاج إلى دفاع؛ لأنه دين تكفل الله بحفظه، ولكن هناك فرق بين حفظ الله لهذا الدين، وبين جهود البشر المكلفين ببيانه وتطبيقه وتوصيله إلى الناس باعتباره رحمة الله للعالمين.

٤. لم يستطع الغرب منذ الحروب الصليبية، وبداية عصر الاستعمار -رغم كل التفوق- أن يمحو الشرق من الوجود أو يكسر شوكة الإسلام، ربما سيطر على أنظمة واحتلَّ بلادا، وربما أن أدمى من الإسلام بعض الأطراف، ولكنه لا يمكن أبدا أن يمحو هذا الدين من الوجود.

٥. جرت سنة الله تعالى في هذا الدين أنه لا ينتصر إلا من ضعف، ولا ينتشر إلا من قلة "بَدَأَ الإِسْلاَمُ غَرِيبًا وَسَيَعُودُ كَمَا بَدَأَ غَرِيبًا فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ" (٤).

٦. يجب أن نفرق بين الإسلام وبين المسلمين، فالإسلام شئ والمسلمون شئ آخر، المسلمون ناس من الناس تجرى عليهم السنن والقوانين، يتقدمون وينتصرون إذا أحسنوا، ويتخلفون ويدفعون فاتورة الحساب إذا أساءوا.

٧. كلما ذهبت إلى مكان من أرض الله ستجد مسلما ومسيحيا ويهوديا، لأن الله خلق البشر كذلك، ﴿وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ﴾ (يونس:٩٩)، ووضع الأرض لكل البشر، ﴿وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ﴾ (الرحمن: ١٠) فعلى الجميع أن يتعايشوا في سلام ولا داعى لمعاندة سنة الله في خلقه.

خطورة التركيز على خطاب التقاطع:

حديث العالم اليوم يدور بين طرفين:

طرف يتحدث الناس فيه عن صراع الحضارات وصراع الثقافات والحروب الدينية، وهؤلاء هم المحافظون الجدد الذين يشعلون حرائق الحرب في كل مكان.

---

٤ صحيح مسلم كتاب الإيمان حديث رقم ٣٨٩

وفي الجانب الآخر يدور حديث حول حوار الثقافات وحوار الحضارات وحوار الأديان بدلا من الصراع.

ومصطلح الشرق والغرب من المصطلحات التي تأخذ مكانها في ذهنية المتلقى من موقع التضاد والتناقض، وربما كانت حمى الحديث عن الصراع هى التى وضعت المصطلح في هذا الموضع.

فإذا أضيف الإسلام بديلا عن الشرق في دلالة المصطلح ليصبح الإسلام والغرب زادت حرارة الجو، وامتلأ المناخ بسوء الظن وربما بالتربص، وتبدو على استحياء روح الصدام والعادئية، وأحيانا تظهر في تبجح سافر تعبر عنه حالة تحولت إلى مرض يسمى: الخوف من الإسلام أو ما يسمى بـــ (الإسلام فوبيا) "Islamophobie".

ومن ثم يبدأ الاتهام من كل طرف للطرف الآخر. ومع أن الحقيقة على مستوى التاريخ والواقع تؤكد دوما أن الإسلام –والمسلمين تبعا له– هم الضحايا دائما، إلا أن التفوق في صناعة الآلة الإعلامية وفن الدعاية، وما تنتجه مصانع الكذب لدى الغرب نجحت في تشويه الصورة، ونجحت أيضا في السيطرة على مساحة كبيرة من عقول ووجدان أبناء الغرب، فهي تجتزئ من التاريخ بعض المواقف دون أن تذكرها في سياقها العام فتقع بذلك في خطيئة التدليس وتحريف الكلم عن مواضعه، لكن تلك الخطيئة لا تعنيهم كثيرا، ما دام المتلقي خالي الذهن، والساحة فارغة ممن يصوب الخطأ ويوضح الحقيقة وينصف دينًا مظلومًا، وينتصر ولو في مجال الكلمة لأمة محروبة تنـــزف من قلبها وتسيل الدماء في أطرافها المختلفة.

ويبدو أن هناك طوائف من البشر تستمد قوة القول من موقع القائل لا من صحة الحقيقة ومنهجية العلم وصدق الرواية وسلامة التصديق.

والملاحظ أن الذي شاع في الفترة الأخيرة وربما لأهداف مقصودة هو التركيز على ثنائية التضاد والتناقض حين وضع الإسلام في مقابل الغرب.

وحين نتحدث عن الغرب لا يجوز أن يكون خطاب التقاطع والمفاصلة هو الخطاب السائد في كل حال، وإذا كان الباحثون والمحللون يقولون بأن البواعث والدوافع لخطاب

التقاطع والعداء للغرب يمثل رد فعل لممارسات الغرب الاستعماري نفسه، ذلك لأن القهر والتخلف والاستبداد ونهب ثروات الشعوب، وعدم احترام الدول، والتدخل في شؤونها الخاصة، وتغليب فئة على فئة، وتحريض فئة على أخرى، ذلك كله يشكل الأرضية الخصبة التى تتولد فيها بذورالكراهية وينمو فيها التطرف، ومن ثم يكون خطاب التقاطع والعداء هو السائد، لأن البعض يرى فيه تحريضا ومساندة على الخلاص من هموم الاستعمار التى لا تنتهى أبدا، وإن كان قد خرج بجيوشه وعسكره، إلا أنه لا يزال مسيطرا بنفوذه ومؤسساته التى تخترق الحدود والحواجز، ولا تحترم خصوصيات الشعوب.

ومع أننا نحترم وجهة النظر هذه ونوافق على أغلب ما جاء فيها، إلا أننا يجب أن ندرك أن هذا الخطاب ذاته هو واحد من الوسائل والآليات التى تعتمد عليها جهات ومؤسسات تريد وتعمل دائما على أن تكون العلاقة ملتهبة ومتوترة بشكل مستمر بين الإسلام والغرب، ومن ثمَّ فالاستجابة لخطاب التقاطع والخصام يصب في خانة الخدمة المجانية لهؤلاء الأبالسة الذين يؤججون نيران الصراع، كما أنه من الناحية العلمية مجافاة لحقيقة العدالة التى دعانا إليها الإسلام، وطالبنا بالاحتكام إليها حتى مع من نشعر أنهم يكنون لنا العداوة والكراهية، فلا يجوز أن يكون الظلم في الحكم عليهم هو رد الفعل لما فعلوه بنا، قال تعالى: "ياأيها يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ لِلّهِ شُهَدَاء بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ" (المائدة : ٨).

ومن ثم فالحكم بعموم على أهل الغرب كلهم بأنهم أعداء، حكم يتسم بالتعميم، ويفتقد الموضوعية، ويخالف وصف الله تعالى لأهل الكتاب بأنهم (لَيْسُواْ سَوَاءً) (آل عمران من الآية ١١٣).

ثم إنه يخالف الواقع الذي يشهد به الكثيرون ممن عاشوا في الغرب وتعرفوا على ثقافاته وسخافاته، وكاتب هذه السطور واحد منهم.

ولذلك أقول وأنا مستريح الضمير أنه يجب أن نفرق بين الغرب كشعوب وبين الغرب كمؤسسات للقرار.

فالغرب كشعوب ليس لدينا معهم مشكلة، ولا يجب أن تكون، ومن ثم فيمكن تقسيم المجتمع الغربي إلى فئات ثلاث:

١. فئة العامة من الناس:

وهؤلاء يستقون معلوماتهم عن الإسلام من خلال الإعلام صحافةً وإذاعاتٍ وتلفازًا، فهم ضحايا كما نحن ضحايا، هم ضحايا التدليس المتعمد والتشويه المدلس من ناحية، ثم هم ضحايا غيابنا نحن المسلمين في الشرق والغرب عن الحضور والتأثير إعلاميًا وسياسيًّا واقتصاديًّا، وليس هناك ميدان واحد لنا فيه إسهام مؤثر تجاه تعديل الصورة وإنصاف الحقيقة وإنقاذ هؤلاء.

والأسباب كثيرة ومتعددة وفي مقدمتها انفصال الصلة بين الإسلام والأنظمة في الوطن الأم، ومن ثم فقضاياه وما يجرى له وللمنتسبين إليه ليست محل اهتمام إلا من الجانب السلبى، أى جانب المتابعة والرصد، ومحاولة البحث عن شبهة اتهام، ومن ثم فإن السند الكبيرالممثل في الوطن الذي يجب أن يكون مصدر الحماية تحول إلى مصدر للتخويف والرعب.

٢. فئة المثقفين والباحثين والعلماء:

وهؤلاء لا يكتفون بما يقدمه الإعلام الغربي عن الإسلام، بل يشكون فيه ويعرفون أن أغلب ما يقدم إنما يصدر عن رؤية كارهة ومغرضة؛ ولذلك فهو في نظرهم يفتقد الموضوعية والحياد، ولهذا فبعض هؤلاء يحرص على القراءة عن الإسلام، ويبحث عن الكتاب الإسلامي باللغة التى يجيدها من المصادر المضمونة والقريبة منه فلا يجده..!!

وربما يحاول تعلم اللغة العربية حتى لا يقع ضحية الفكر المغشوش والثقافة المسمومة، التى تملأ الأسواق عن الإسلام والمسلمين، وقد التقيت بكثير من هؤلاء وتحاورت معهم، وأشهد أن الإنسان الغربي –وبرغم كل ما يقال عنه– لا زال لديه من رصيد الفطرة ما يمكنه من تقبل الحقيقة إذا عرضت عليه بذكاء، وقدمت له في صورتها النقية، كما أن مساحة الحرية المدنية التى تربى عليها، وإن كانت قد تقلصت كثيرا بعد أحداث١١ سبتمبر إلا أن المساحة المتبقية لدى هؤلاء، تجعلهم يدافعون عن الفكرة التى يؤمنون بها، وترتفع أصواتهم في وجه حكوماتهم بالاعتراض، ويستعملون كل الوسائل المتاحة في الضغط، فهم إيجابيون في قضايا الشأن العام، ولا يكتفون بالفرجة من بعيد كما تفعل بعض الشعوب، وصحيح أن

الحكومات ومصادر القرار قد لا تستجيب لبعض تلك الضغوط كما حدث في حرب العراق، غير أن المظاهرات زلزلت تلك الحكومات وشكلت ضغطًا عليها، بل وأسقطت بعضها في أقرب انتخابات كما حدث في أسبانيا وإيطاليا.

وأذكر أنه في إحدى هذه المظاهرات رأيت سيدة مقعدة تجلس على كرسي مخصوص (**Wheel Chair**) تشارك في تلك المظاهرات، وقد اقتربت من زميل مسلم وقالت له: "لا تخف أنا هنا من أجلك أنت، نحن نعرف أنها حرب تجار الموت، ونعرف أنها ليست عادلة، ولذلك جاء كل هؤلاء ليعبروا عن اعتراضهم"

من هنا أقول: نحن حتى الآن لم نستثمر تلك المشاعر، ولا تلك المساحة من الحرية، وحتى هذه اللحظة القنوات الفضائية التى عبرت السماوات المفتوحة إلى أوربا وأمريكا لا زالت تخاطب نفسها، فضلا عما تحمله للمهاجرين من فن رخيص ومشكلات تضيف إلى غربتهم غربة أخرى نفسية واجتماعية، ويأس في إصلاح أو تغيير، ومن ثم فهي تشكل عبئا ولا تحمل زادا ثقافيا يعين الغريب النائي وهو يسبح ضد التيار ببقايا مقاومة وبقايا دين وهوية.

٣. الغرب كمؤسسات للقرار:

وهؤلاء لهم أهدافهم وأطماعهم، ولهم أجندتهم الخاصة، ولهم أيضا رؤيتهم للإسلام والمسلمين، ولذلك فالمشكلة الحقيقية مع هؤلاء، لأنهم هم الذين يمثلون الغرب المستعمر المستغل.. فالغرب صاحب مشروع السيطرة والتقسيم والعدوان على الآخرين، الغرب صاحب منظومة الكذب التى تشوه الآخر وتحط من قدره، وتحاول إشاعة الخوف منه وتلصق به أبشع الاتهامات، ولا تكف عن الهجوم عليه، واستعداء الشعوب ضده، هذا هو غرب الصراع والصدام والمواجهة والبحث عن الفريسة دائما، أما الغرب كشعوب فليس لدينا معهم مشكلة أبدا. وحتى محاولات الغرب السيطرة وتأزيم المواقف لم تنجح كلها رغم كل أجهزة الكذب التي تروج لها، فشعوب الغرب قد اكتشفت الخديعة وعرفت أن خطط التآمر والعدوان ترتبط بمصالح أخرى هى السيطرة على منابع الثروة، ولا ترجع لحالة الإسلام أو مواقف المسلمين.

وفي استفتاء قامت به كل من جريدة" سيدنى مورننج هيرالد" (**SydneyMorning Herald**) بالتعاون مع إذاعة الـ: **B.B.C** البريطانية ما بين "نوفمبر ٢٠٠٦ إلى يناير ٢٠٠٧" على عدد من الناس بلغ "٢٨٠٠٠" ثمانية وعشرين ألف نسمة في ٢٧ دولة من دول العالم حول أسباب الصراع بين الإسلام والغرب وقد نشرته جريدة" (**Sydney**

(Morning Herald" في عددها الصادر بتاريخ الإثنين ١٦ فبراير ٢٠٠٧.

وقد وجدوا أن الغالبية تؤمن بأن المصالح السياسية والاقتصادية، وليس الاختلاف في الدين ولا الاختلاف في الــ "التقاليد" هي الأسباب في النزاع والعنف الدائر في العالم حاليا، ثم كانت محصلة الاستفتاء ما يأتي:

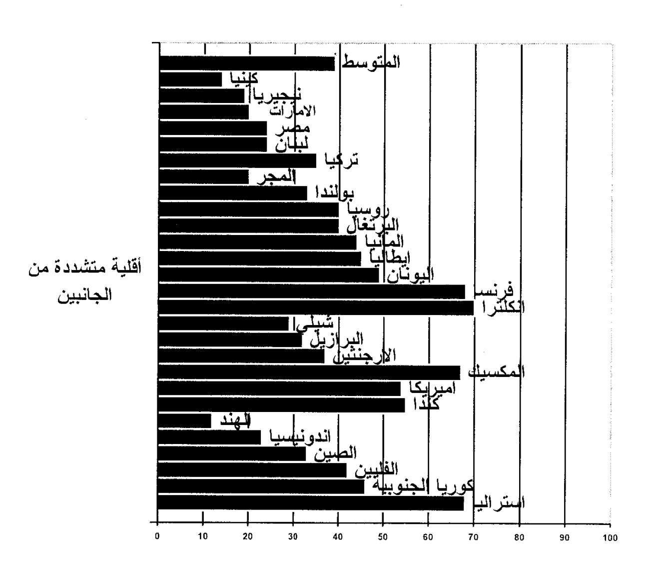
- ٥٢% يرجعون أسباب التوتر بين الإسلام والغرب إلى القوى السياسية والمصالح الاقتصادية
- ٥٨% يرجعون سبب التوتر إلى الأقلية المتشددة من الجانبين
- ٢٩% الاختلاف في الدين والتقاليد
- ٢٦% اختلافات أساسية
- 25% يعتقدون أن التنازع بين المصالح هو السبب الرئيس في التوتر بين الإسلام والغرب.
- ٢٩% يعتقدون أن الدين والتقاليد هي سبب هذا التوتر.

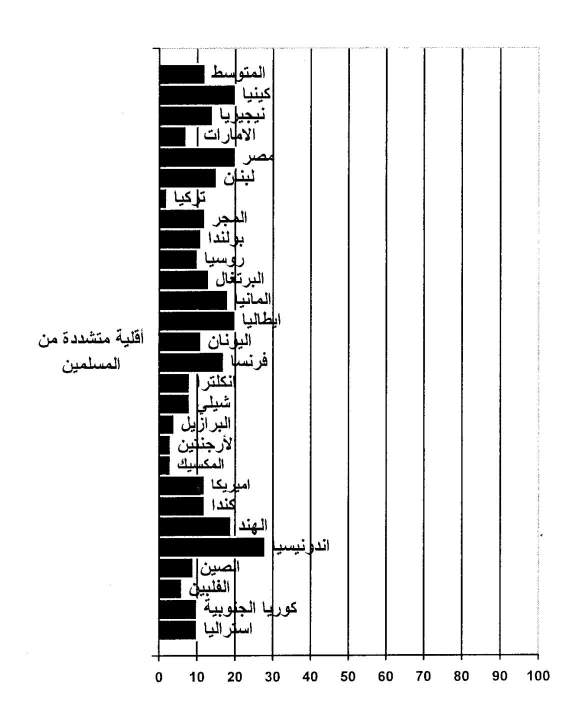
وأن الغالبية العالمية يرفضون فكرة الكاتب "صموئيل هنتنجتون" الذي يقول بأنه لا مفرّ من حدوث تصادم الحضارات (ويقصد الحضارة الاسلامية والحضارة الغربية) بناءً على الدين والتقاليد.

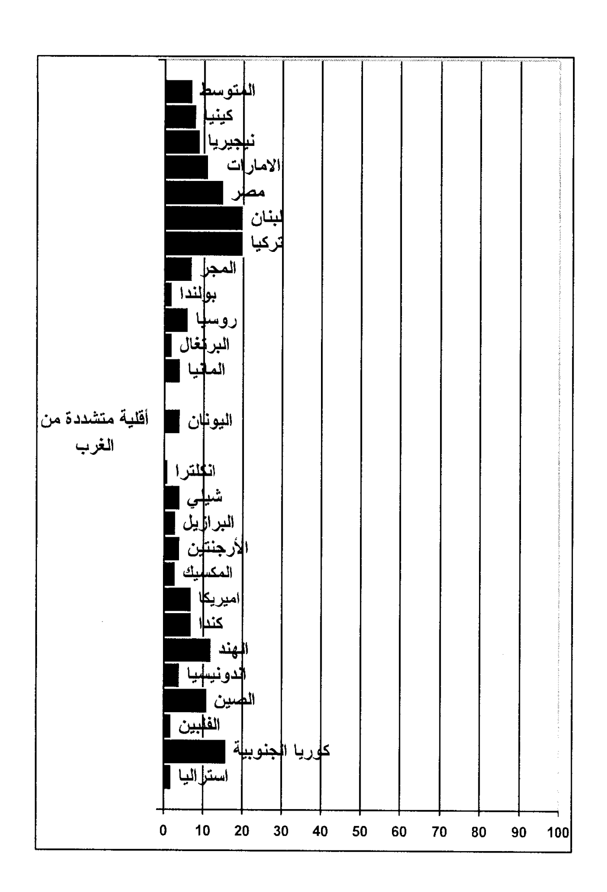
وفي أستراليا أظهر الاستفتاء أن:

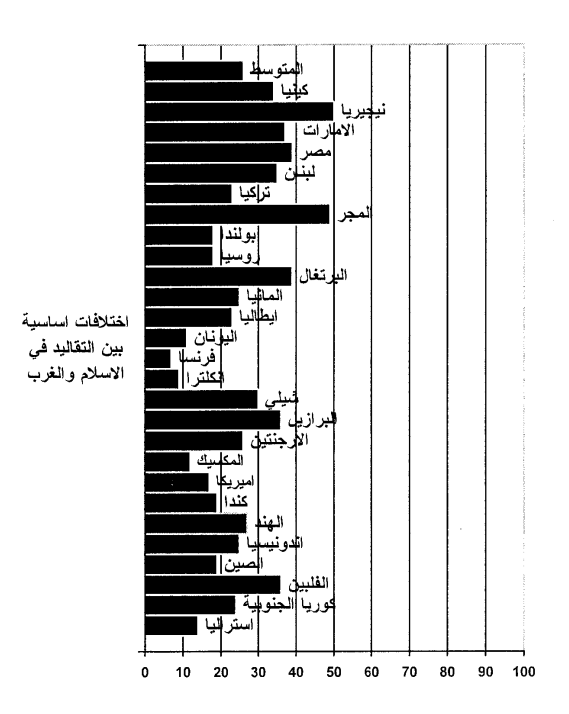
- ٦٨% من الأسترال يلومون الأقلية المتشددة من الجانبين الإسلامي والغربي في خلق هذا النزاع.
- وأن واحدًا من كل عشرة أستراليين يلومون المسلمين المتشددين في هذه القضية.
- وأن اثنين من كل ثلاثة أستراليين يتفهمون أنه يوجد أشخاص من كلا الجانبين، الغربي والاسلامي على السواء يحبون خلق هذا النزاع.
- ومن كل الذين اشتركوا في هذا الاستفتاء أكثر من نصفهم
- ٥٦% يعتقدون أنه يوجد أرضية مشتركة للتعايش بين الحضارتين.
- ٢٨% فقط يعتقدون أنه ستحدث مواجهة بين الغرب والمسلمين.

وأنه بالرغم من أحداث سبتمبر ٢٠٠١ وغزو العراق ومحاولة السياسيين الغربيين والاعلام الغربي في إظهار وجود صدام بين الغرب والإسلام، فإن معظم الأشخاص في الاستفتاء ما زالوا متفائلين. وهذه هي الإحصائيات كما نشرتها الجريدة المذكورة :


أقلية متشددة من الجانبين
المتوسط
كينيا
نيجيريا
الامارات
مصر
لبنان
تركيا
المجر
بولندا
روسيا
البرتغال
المانيا
ايطاليا
اليونان
فرنسا
انكلترا
شيلي
البرازيل
الارجنتين
المكسيك
اميركا
كندا
الهند
اندونيسيا
الصين
الفلبين
كوريا الجنوبية
استراليا
0
10
20
30
40
50
60
70
80
90
100


أقلية متشددة من المسلمين
المتوسط
كينيا
نيجيريا
الامارات
مصر
لبنان
تركيا
المجر
بولندا
روسيا
البرتغال
المانيا
ايطاليا
اليونان
فرنسا
انكلترا
شيلي
البرازيل
لأرجنتين
المكسيك
اميريكا
كندا
الهند
اندونيسيا
الصين
الفلبين
كوريا الجنوبية
استراليا
0
10
20
30
40
50
60
70
80
90
100


أقلية متشددة من الغرب
المتوسط
كينيا
نيجيريا
الامارات
مصر
لبنان
تركيا
المجر
بولندا
روسيا
البرتغال
المانيا
اليونان
انكلترا
شيلي
البرازيل
الأرجنتين
المكسيك
اميريكا
كندا
الهند
اندونيسيا
الصين
الفلبين
كوريا الجنوبية
استراليا
0
10
20
30
40
50
60
70
80
90
100



اختلافات اساسية
بين التقاليد في
الاسلام والغرب
المتوسط
كينيا
نيجيريا
الامارات
مصر
لبنان
تركيا
المجر
بولند
روسيا
البرتغال
المانيا
ايطاليا
اليونان
فرنسا
انكلترا
شيلي
البرازيل
الارجنتين
المكسيك
اميريكا
كندا
الهند
اندونيسيا
الصين
الفلبين
كوريا الجنوبية
استراليا
0 10 20 30 40 50 60 70 80 90 100

بين الثقافة والحضارة:

حين نتحدث عن حوار أو صراع بين الحضارات، فإنه من الضروري الكشف عن موقع المكون المعرفي من الحضارة ككل، وهل الثقافة هي الحضارة أم أنهما مختلفان..؟ وهل يمكن الحكم على الحضارة من خلال الحكم على الثقافة مثلا ..؟

"ربما يكون معنى الحضارة من حيث الأصل أوسع دلالة من الثقافة، لأنه إذا كانت الثقافة هي نتاج المعرفة وتنمية العقول، فمن الواضح أنها لم تنشأ إلا بعد الاستقرار الذي تمثل في سكن المدن والأمصار، والذي هو بداية التحضر، ومن الممكن أن توصف العلاقة بين الثقافة والحضارة على أنها علاقة تلازم، ومن ثم فالتفرقة بين الحضارة والثقافة ليست أمرًا لابد منه"(٥).

وإذا كانت الحضارة هي التطبيق المادي للتراث الثقافي فهي من ناحية أخرى وليدة هذا التراث في البيئة التي تقوم فيها، ثم إنها المرآة التي تعكس مقومات ثقافة المجتمع وخصائصه العامة، وهذا ما يؤكد علاقة التلازم بين المصطلحين " (٦).

ومعنى ذلك أن مصطلح الحضارة يحمل معنى واسعًا، يدخل ضمنه بالطبع مدلول الثقافة.

ومما لا شك فيه أن أي سلوك إنما ينشأ عن فكرة... فإن كانت الفكرة صحيحة،كان السلوك صحيحًا مستقيمًا، وإن كانت الفكرة خاطئة كان السلوك خاطئًا ومعوجًا، ولذلك نقول: إن الخطأ في الوزن غير الخطأ في الميزان، فالخطأ في الوزن يعالج، والإنسان مثلا يمكن أن يخطئ في فهم حكم فقهي أو حتى في تطبيقه، ثم يعدل عن هذا الخطأ ويتراجع، ولا عيب في ذلك، أما الخطأ في الميزان فهو يتكرر بتكرار استعمال هذا الميزان، ومن ثم فالأخطاء الكبيرة والخطيرة إنما تنبع أصلاً من خطأ التصور.

---

٥ منهج الإسلام في تحقيق الأمن، رسالة دكتوراه للمؤلف غير منشورة – كلية أصول الدين بالقاهرة جامعة الأزهر، سنة ١٩٨٧، جزء ،٢ ص٤١٦ .

٦ لمحات في الثقافة الإسلامية، الأستاذ محمد أحمد جمال ص ٤٤ .

وبناء على ذلك فهل يمكن أن نحكم على حضارة ما من خلال ثقافتها فقط؟ أم أن الحضارة مجموعة من المعارف المادية والمعنوية، فيها الصواب والخطأ، ومن ثم فلا يمكن محاكمة الحضارة بناء على مكون واحد من مكوناها ..؟

يقول العلامة أبو الحسن الندوي:

"الحضارة بمعناها الواسع مجموع عقائد ومناهج فكرية، وفلسفات ونظم سياسية واقتصادية، وعلوم طبيعية وعمرانية واجتماعية، وتجارب خاصة مرت بها الدول الأوربية التي تزعمت هذه الحضارة في رحلتها الطويلة، وكانت مظهر تقدم العلم البشرى وعلوم الطبيعة وعلم الآلات والعلوم الرياضية، ومجموع نتائج وجهود علماء وباحثين عبر القرون، فكانت مزيجًا غريبًا من أجزاء لا يكون الحكم عليها واحدًا متشابهًا، وكانت مزيجًا من السليم والسقيم، والصواب والخطأ في النتائج والأحكام " (٧).

مصادر تكوين التصورات والرؤية:

إن العامل الحاسم الذي له دور كبير في توجيه السلوك نحو الحوار أو الصراع في الأفراد والأمم، وحتى في الحضارات، إنما هو المكون الثقافي والذي هو الناتج الطبيعي والثمرة الـمُـرَّة أو الحلوة للمكون العقدي. وعلماء التربية وعلماء النفس وعلماء الاجتماع يقررون بأن رؤية الإنسان لذاته ودوره ورسالته، ورؤيته للبيئة المحيطة، وكذلك رؤيته للكون والحياة، تتشكل من خلال مصدرين اثنين، هما:

١. العقيدة التي يعتقدها الإنسان ويدين بها.

٢. الثقافة التي تربى عليها، وتكوَّن عقلُه ووجدانُه من خلالها.

ومن المعروف علميًّا أن القيمة عندما تستمد قداستها من العمق الديني، فإن حرية ممارستها تنبعث من أقوى المشاعر تأثيرًا في حياة الإنسان، وبذلك يكون المكون المعرفي الصحيح -لا نقيضه- هو النبع للشعور بالالتزام الأخلاقي، أي بالواجب تجاه الجماعة والأمة والتضحية في سبيلها.

---

٧ موقف العالم الإسلامي تجاه الحضارة الغربية لأبي الحسن الندوي، ص ١٠، دار القلم، الطبعة الثانية ١٩٨٠.

كما أنه من المعروف أيضًا أن أقوى أنواع الضبط للسلوك الإنساني هو الضبط الإرادي، وهذا الضبط لا يمكن أن ينتج إلا من الأخلاق التي ترتبط بقيم يدعمها الإيمان الجامع بها، وهي أخلاق لا تتبدل حسب الطلب، وإنما تبقى ثابتة، لأنها هي التي تحفظ للجماعة الحد الأدنى من التوازن، كما أنها تمد المجتمع بالقواعد التي تضبط سلوك الناس وتوجه ممارساتهم.

تلك هي المؤثرات الأساسية في عقلية الإنسان وفكره وتصوره، وبذلك يكون من الطبيعي أن تختلف الرؤى والأفكار والتصورات.

ولقد كان الإسلام واقعيًّا حين قرر تلك الحقيقة.. حقيقة اختلاف الناس في طِباعهم وعاداتهم ولغاتهم وأجناسهم، بل جعلها آية من آيات الله في خلقه، قال تعالى: (وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ) (الروم:٢٢).

حضارة أم حضارات؟

وتبعًا لاختلاف الأجناس واللغات والشعوب، هل تختلف كذلك الحضارات..؟ أم أنها تتحد فيما بينها لتكوِّن حضارة واحدة تحمل الطابع الإنساني لجميع البشر، كما يطلق الآن على حضارة الغرب السائدة والمسيطرة في عالم اليوم..؟

وثمة سؤال آخر: إذا كانت الحضارة واحدة وليست متعددة، فَلِمَ كان الصراع القديم الذي استدعاه وأحياه لنا السيد "صموئيل هنتنجتون" في كتابه المعروف صدام الحضارات؟.

ثم "إن الكوكب الأرضي الذي نعيش عليه، رغم التواصل والتقارب والتفاعل، إنما يشهد وتعيش عليه وتتعايش عليه حضارات عدة، لكل منها ما يميزها عن غيرها من الحضارات "(٨).

---

٨ الإسلام والمستقبل، د. محمد عمارة، ص ٦٥ ، ط دار الشروق، الطبعة الثانية ١٩٨٦.

ومن غير شك أن الحضارت تتعدد، وأن الإنجاز فيها تراكمي، يبنى على ما قبله ويستفيد منه، ثم يعطى ما يأتي بعده ويؤثر فيه، وأن هذه التراكمية في العلوم والثقافات ومنجزات العقل التكنولوجية لا يمكن أن تنشأ من فراغ، وإنما تتأثر وتؤثر، ومن ثم فقد تشترك الحضارات في بعض الملامح والقسمات العامة، غير أن لكل حضارة خصوصيات تنفرد بها وتميزها على غيرها من الحضارات، رغم العطاء الذي يعطيها الطابع الإنساني العام، وبخاصة بعد ثورة المعلومات التي اخترقت واختزلت حواجز الزمان والمكان.

قانون المد والجزر:

وهذه الحضارات تخضع لقانون المد والجزر، ويجرى عليها قانون التغيير، فتخضع في مراحلها المختلفة لعمليات الانتصار والانكسار، والانتشار والانحسار، وبقدر ما تحمل الحضارة من قيم عُليا بقدر ما تبقى وتستمر، وذلك قانون الحق الذي وضعه الله تعالى للناس، وكما تسيل أودية الماء بقدرها، تسيل كذلك أودية الحضارات، وبقدر ما تحمل كل حضارة من قيم العدل والكرامة والمساواة والحرية، بقدر ما تكون مناعتها ومقاومتها لعوامل الفناء.. وإذا كان العلماء قد قرروا أن للحضارات مراحل تبدأ فيها عملية الإقلاع بالانطلاقة الروحية باعتبارها الدافع والمحرك والوقود معًا، ثم تصعد وتستقر بنضوج العقل وتوظيف قدراته واستثمار عطاءاته ومنجزاته الفكرية والثقافية والمادية، وتلك مرحلة الشهود الحضاري، فإن أخطر ما يصيب الحضارة بشيخوخة مبكرة تهددها بالتفتت والزوال، هو سيطرة المطامع وسعار الشهوات حين ينطلق بغير حدود أو قيود، ومن ثم تبدأ عمليات الانحسار والانكسار في الخط البياني نحو الهبوط والتدني، وهذه هي مرحلة الأفول، ومن ثم تعقبها مرحلة السقوط التي يعجل بها أو يؤجلها مدى القدرة الاقتصادية لهذه الحضارة.

لذلك رأينا السرعة المذهلة في سقوط القطب الشيوعي الذي ظل يمسك بنصف زمام العالم أكثر من نصف قرن من الزمان، برغم وجود دولة وأبوة سياسية وظِّفت في خدمة هذه الأيديولوجية كلَّ الآليات والوسائل التي تعمل على تشكيل عقليات أغلب سكان المعمورة.

الفصل الثاني

المكون المعرفي وأثره على العلاقة بين الإنسان والكون

حين نتحدث عن المكون المعرفي يجدر بنا أن نبحث في اللغة باعتبارها الوعاء الذي يتشكل من خلاله وجدان الأمة وفكرها ورؤيتها، ولصاحب كتاب الفروق في اللغة بيان في الأمر جديربالتدوين والنظر، فهو يقول: "المعارف الضرورية على أربعة أوجه:

١. أحدها ما يحدث عند المشاهدة.

٢. والثاني عند التجربة.

٣. والثالث عند الأخبار المتواترة.

٤. والرابع أوائل العقل" [٩].

فالمكون المعرفي إذًا هو محصلة لمجموعة من المعارف والخبرات الضرورية التي تبدأ بالمشاهدة، ثم التجربة، ثم الأخبار المتواترة، وكل هذه المعارف والخبرات يستقبلها العقل ويحللها في نهاية الأمر ثم يكون من خلالها رؤيته وتصوره وحكمه على الموضوع المطروح للبحث ، لكن أخطر ما يؤثر في العقل ويحرك وجهته هو ما يستقبله من مصادر العقيدة –بصرف النظر عن الصحة والفساد– ومن ثم فحين نتحدث عن المكون المعرفي وعلاقته بتوجيه الحضارات، تبرز أمامنا مستويات متعددة من العلاقات، بعضها ينبع من تصور ذاتي فرضه الواقع الذي عاشه الإنسان الأول، وبعضها أثر لتراكمات تاريخية تمتزج فيها الحقيقة بالخرافة والأسطورة بالرمز، لكن أوضح هذه المستويات على الإطلاق ما كان نابعًا من فلسفة وأيديولوجية ودين.

وهذا يحتم علينا بدوره أن نستعرض الفلسفات التي تشمل أوسع مساحة من الكرة الأرضية، وتشكل عقليات أغلب سكان المعمورة وعلاقتها وأثرها في التوجيه الحضاري، وأن نبحث في عمق تلك الفلسفات عن القواسم المشتركة والمصالح المتبادلة التي تعود

---

٩ الفروق في اللغة، أبو هلال العسكري، ص،٧٥ تحقيق: لجنة إحياء التراث العربي، الطبعة الرابعة دار الآفاق الجديدة بيروت ١٩٨٠.

على الناس جميعًا حين يتقبل كل طرف الأطراف الأخرى، باعتبارهم شركاء له في العيش بكرامة على هذا الكوكب، وليسوا خدمًا وعبيدًا، وكذلك لابد من البحث في عمق تلك الفلسفات أيضًا عن دوافع الصراع ودواعيه وأسبابه، وكيفية الخلاص منه، وأن نعمل جميعًا من خلال رؤية مشتركة على تلافي تلك الأسباب، ومن ثم فلابد من التعرض لعلاقة تلك الفلسفات بالكون، باعتباره الوعاء الذي يحتوي الوجود جميعًا ومنهم البشر بالطبع، وكذلك علاقة تلك الفلسفات بالإنسان ذاته باعتباره المحور والمرتكز الذي يترجم هذه الفلسفات بسلوكه العملي على أرض الواقع خيرًا وشرًا، حُبًّا وكرهًا، تجاذبًا أو تنافرًا، صداما أم تعيشًا. ونحن نعرف أن فكرة الصدام مع كل الحضارات لم تغب عن عقلية الذين يتحدثون عن الصراع ويتبنون فكرته، إلا أنَّ الحديث عن حوار الحضارات أو صدامها ينصب ويتركز في وقتنا الراهن على الحضارتين الغربية والإسلامية.

ويمكننا تقسيم هذه العلاقة إلى محورين رئيسين.

المحور الأول:

وتمثله الحضارة المادية بشقيها الماركسي والليبرالي الرأسمالي.

والمحور الثاني:

وتمثله الحضارة الإسلامية التي تربت وترعرت في ظلال الوحي المعصوم، والملتزمة أصلا بفلسفة القرآن والسنة.

واستأذنك أيها القارئ الكريم أن نستعرض معًا -وبصحبتك رؤية هذه المحاور، لعلاقة الحضارات بعضها ببعض، علَّنا نجد فيها ما يشفي الغليل، ويروي ظمأ المتعطشين إلى معرفة الحقيقة.

الشق الأول في المحور الأول:

المكون المعرفي في الشق الماركسي للحضارة:

وهو الفلسفة الماركسية أو الأيديولوجية الماركسية كما يحب أن يسميها أتباعها.

والمكون المعرفي الذي تدين به هذه الأيديولوجية يعتمد الإلحاد عقيدة، ولا نستطيع أن نقول عن الإلحاد بأنه ليس عقيدة؛ لأنه يعني عدم الإيمان بأي دين، وهذا الكلام صحيح في شطره الثاني؛ لأن الإلحاد حين استبعد من حساباته كلَّ العقائد الدينية استبدل ذلك كله بعقيدة هي أنه "لا دين".

فعقيدة الإلحاد إذًا ليست الكفر بكل عقيدة وإنما هي الكفر بكل عقيدة دينية.

وكما يقول دالن في كتابه "روسيا البيضاء" إن الإنسان لابد أن يؤمن، فإن لم يجد حقًّا آمن بباطل. فالإلحاد هنا كَفَرَ وَآمَنَ؛ كَفَرَ بالعقائد والأديان، وَآمَنَ بالإلحاد والماركسية وحتمية الصراع الطبقي.

فكرة الصراع تنضح على كل شيء:

والمكون المعرفي والذي هو انعكاس للمكون العقدي، وعلى ضوئه يتشكل عقل الإنسان ورؤيته، ويتشكل وجدانه العام وفق هذه الأيديولوجية هو نظرية الصراع كحتمية تاريخية بين الإنسان والإنسان أولاً، وبين الإنسان والأشياء ثانيًا.

وحول فكرة الصراع تدور ثقافة الفرد والمجتمع، ويتشكل العقل الجمعي للأمة، كما تتم من خلالها صياغة الرأي العام. وجدير بنا أن ننقل رأي واحد من كان من كبار مفكري الماركسية في أوروبا الغربية وهو المفكر الفرنسي روجيه جارودى حيث يقول:

"ولدت الإشتراكية تاريخيا في القرن التاسع عشر، في كل المجتمعات التي استبدل فيها بطبقات العائلات الإقطاعية طبقات أصحاب الأموال. أتباع ماركس جعلوا في بعض الأحيان من الإلحاد مكونًا أساسيًّا للإشتراكية، مما حرمها دائما من بعدها الخاص بالبحث فيما وراء المادة لصالح تسميتها بـ"الإشتراكية العلمية"، متناسين أن الثورة يمكن أن تكون علمية في وسائلها، لكن لا يمكن لأي علم أن يمنحنا أهدافًا نهائية.

لم تفشل محاولة إشتراكية الدولة في روسيا بسبب اقتصادها المتخلف فقط، ولا بسبب الظروف الدولية المعادية فقط، ولكن أيضا لأن مفهومها الخاطئ عن الاشتراكية، قام على المفاهيم الإنتاجية للغرب منذ عصر النهضة.

لا يبدو الخراب الإنساني جليا إلا بعد الإنطلاق الصناعي عام ١٩٣٧، لكن تم حجبه أمام بوادر الحرب العالمية الثانية، وعندما فرض ستالين تأميم القطاع الزراعي، وبأسلوب تسلطي متسرع، سدد ضربة قاصمة لذلك القطاع، لم يفق منها حتى اليوم.

فاستيلاء الدولة على وسائل الإنتاج، في دولة رأسمالية متخلفة -لم تكن طبقة العمال تشكل في عام ١٩١٧ سوى ٣% من الأيدي العاملة- أدى إلى نوع من التصنيع، لكن

يأتي "من أعلى" بدلا من أن يقوم على تعاونيات ذاتية الإدارة من الشعب.. بدلا من أن تكون "الخطة" وسيلة لتهذيب الاقتصاد لتوجيه الإنتاج لخدمة الحاجات الإنسانية، أصبحت المؤسسات الصناعية للدولة طبقة تدار بطريقة شبه عسكرية، دون "مشاركة" من القاعدة، حيث احتفظ التنوقراطيون، والبيروقراطيون، وأعضاء جهاز الحزب بكل السلطات، واتخذوا القرارات نيابة عن الجميع، الذين لم يستشاروا.

اشتمل التحريف الكبير على خلط توجيه الدولة مع طريقة الإدارة من أعلى، وتدخلها في الاستثمارات، والأسعار، ومعايير الإنتاج، والتوزيع التجاري، وتطورات السلطة، قادت هذه التحريفات اشتراكية ماركس، الاقتصاد إلى الفوضى، والحرية إلى الزنزانة" (١٠).

ولم توقف تلك التحريفات عند هذا الحد، وإنما أدخلت مفردات الطبيعة وعناصرالوجود والمنظومة الكونية كلها ضمن دائرة الصراع. وبرغم أن النظرية كانت في بدايتها رد فعل غير محسوب لحالات الجنون الاجتماعي والاقتصادي والسياسي في الرأسمالية، إلا أنها لاقت رواجًا غير مألوف في عالم الأفكار والفلسفات، واعتنقتها وتمسكت بها أغلب مجتمعات الأرض، وربما وجدت فيها خلاصًا من حالات الجشع والاستغلال الذي تمارسه الرأسمالية، واندفعت إليها شعوب، ودعت إليها دول، وجندت في الدعوة لها كلَّ شيء: الصحافة والإذاعات، والسينما والمسرح، والرواية والقصة، والمال والبشر، وحتى الحديد والنار..

غير أن هذه الفلسفة باعتناقها للإلحاد، فرَّغت الإنسان من محتواه المعرفي والشعوري، وحولته في نهاية المطاف إلى مجرد آلة لا حسّ بها ولا شعور لها، وتجاهلت بمقتضى الإلحاد دوافع الفطرة في الذات الإنسانية، كما تجاهلت الأبعاد المؤثرة في تكوين الإنسان نفسيًّا وعقليًّا، وبخاصة البعد الغيبي الذي له إسهام ضخم في إيجاد التوازن النفسي بين الإنسان وبين ما يحيط به من أشياء، يقول الماوردى -متحدثا عن أثر الدين

---

١٠ حفارو القبور، لروجيه جارودي، ص ٤٩ــ ٥٢ بتصرف، ترجمة: عزة صبحي، مطبعة دار الشروق الطبعة الثالثة ٢٠٠٢ .

في ضبط السلوك وإحداث التوازن وتحقيق الأمن للناس-: "القاعدة الأولى وهي الدين المتبع فلأنه يصرف النفوس عن شهواتها، ويعطف القلوب عن إرادتها حتى يصير قاهرا للسرائر، زاجرا للضمائر، رقيبا على النفوس في خلواتها نصوحا لها في ملماتها، وهذه الأمور لا يوصل بغير الدين إليها، ولا يصلح الناس إلا عليها، فكأن الدين أقوى قاعدة في صلاح الدنيا واستقامتها، وأجدى الأمور نفعا في انتظامها وسلامتها ولذلك لم يخل الله تعالى خلقه مذ فطرهم عقلاء من تكليف شرع واعتقاد دين ينقادون لحكمه فلا تختلف بهم الآراء ،ويستسلمون لأمره فلا تنصرف بهم الأهواء" (١١).

وبغياب الدين أو تغييبه لم يعد هنالك الحافز الذاتي الذي يؤدي دوره في السلوك والممارسات، وانعكس هذا الغياب للبعد الغيبي والحافز الذاتي على حركة الإنتاج في النوع والكم فكانت النتيجة مفزعة..!!

إن الفلسفة التي أغرت الناس بفردوس موهوم تتحقق فيه شيوعية الطعام والجنس أفقرت الأغنياء وأشقت الفقراء، وحولت الإنسان إلى دُمية فاقدة للإدراك والوعي، لا حسّ فيها ولا شعور لها، ثم حوَّلت المجتمعات إلى قطيع من الحيوانات الجائعة التي تبيع كلَّ شيء: الضمائر، والذمم، والأعراض، والوطن..

لقد حدَّثتهم هذه الفلسفة عن المساواة، فإذا هي مساواة الجميع في الهوان والمهانة والاكتئاب والفقر المذل...!!

وعدتهم بالحرية، فإذا بها حرية الحزب الواحد في أن يتحكم ويستغل، وحرية الصغار ممن ينتسبون إلى الحزب في أن يتلصصوا ويتجسسوا على الناس، ويسرقوا منهم ضرورات الحياة بعد أن سرقوا كرامتهم وحريتهم وأحلامهم بالفردوس الموهوم..

واستيقظ النائمون والمخدوعون من غفلتهم في ليل الخداع القارس على كوارث مفجعة، ولعنت الشعوب تلك اللحظة التي حلَّت فيها الشيوعية بدارهم؛ فما جلبت لهم غير الخراب والدمار وسفك الدماء، وتأصيل الضغائن والأحقاد بحتميات التاريخ التي تحدَّثت عنها، والصراع الطبقي الذي دعت إليه وروجت له..

---

١١ أدب الدنيا والدين، للماوردي، ص١٤٨، شرح وتعليق: محمد كريم راجح، الطبعة الثالثة، ١٩٨٤ ط دار اقرأ بيروت .

وكانت النهاية المأساوية بعد أن تهاوت الأصنام، وتهدَّم المعبد غير المقدس، وتحطم الإله المزيف على يد كبير الأساقفة (جورباتشوف) حين سمح لنفسه أن يفكر بصوت مرتفع ولأول مرة، فكان دوي البروستوريكا أقوى من أعمدة البناء الذي انهار وسقط على رؤوس العبيد والكهان وحراق البخور..

وظهرت شمسُ الحقيقة لتذيب هذا الجليد البارد، ولتثْبت للناس أنه لا يصح إلا الصحيح وإن طال الزمان، ولتؤكد لهم دومًا أن حبل الباطل قصير وضعيف، وأنه في حقيقته أوْهَى من بيت العنكبوت، حتى وإن تسلح بالحديد والنار..

كما أنه أمام عوامل الزمن ودواعي الفطرة، وشواهد العقل لا يلبث أن يتعرى، ثم ينقطع ويتلاشى، وأن الشعوب في لحظة وعْي وإفاقة تثور على المستبدين والآلهة المزيفة، فتخرجهم من جنتها وتتركهم لألسنة اللهيب تشوي جلودهم.

وتفككت دول، وتلاشت فلسفات، وذابت مدنيات، وعُرِضت بلاد بأسرها للبيع في أسواق الخبز والحرية (والهامبورجر)، وتبدَّلت حمرة الخجل بصفرة الرعب والفزع في وجوه الفلاسفة والمنظِّرين والكهان ومحترفي الكذب ومصدري الدعاية للاشتراكية العلمية كما كانوا يسمونها (١٢). وانتهت المهزلة الماركسية التي أنكرت الألوهية وجحدت وجود الله تعالى والدار الآخرة، وآلت في زمن قياسي جدًّا إلى ما نراه الآن من تفكك لبنية مادية كانت تمسك بزمام نصف الكرة الأرضية، "وهكذا نجد على امتداد قرنين أن الحركات السياسية في أوروبا التي هدفت إلى تحرير الإنسان وخلق الإنسان الجديد وتجسيد المدينة الفاضلة قد انتهت إلى سجن الإنسان في تجارب اجتماعية كتب عليها الفشل بواسطة الحركتين النازية والشيوعية" (١٣)

---

١٢ انظر دراستنا: أزمة الأيديولوجيات وضياع الشعوب، كتاب دعوة إلى التفكير، ط/٢، ص١٠٢ أبو ظبي للطباعة والنشر ١٩٩٥م.

١٣ عالم خارج حدود السيطرة، كتاب نشرته جريدة الاتحاد الإماراتية، للكاتب الأمريكي، زبيجنيو بريزينسكي المستشار الأسبق للأمن القومي الأمريكي، عرض وتلخيص: هبة الإمام وهبي، الحلقة ٢ ـــ٦ ص٢٣، عدد الاثنين ٩ فبراير ١٩٩٤ .

ثم بيعت بلاد وفلسفات؛ لأنها افتقدت التبصر والإدراك لحقائق الكون وحقيقة الإنسان، فحين تعاملت مع الكون تعاملت من منطلق النكران والجحود لخالقه ومبدعه، وتسربلت بثياب الصدفة المجردة؛ لتهرب من السؤال المتكرر بإلحاح، لكن كل أجهزة الدعاية لخرافة الصدفة لم تستطع أن تنفي من العقل أو من الفطرة هذا السؤال الكبير:

(كل هذا الوجود بكل حركته وقوانينه المنضبطة من حيث النسب والأحجام والأوزان والكتل والتفاعلات الدقيقة، والحركة والسرعة والأبعاد، جاء هكذا مصادفة وبلا تدبير أو تقدير؟؟). إن العقل الذي يقبل هذا التخـــريف وهذا التحريف هو عقل فقد التعقل، لأنه يتناقض مع أبسط قواعد المنطق، كما يجافي كل حقائق العلم، ولن يجني من هذا الجنون غير الفساد والدمار، وإن اخترق الفضاء وصعد إلى القمر، والتجربة خير برهان.. وهكذا، فقد تجاهلت تلك الفلسفة حقيقة الإنسان حين تعاملت معه، لا باعتباره مخلوقًا مكرمًا يتكون من مادة وروح، وله نسبه السماوي الرفيع العالي، وإنما نظرت إليه على أنه مجرد حيوان ناطق.. بطن تمتلئ.. ومعدة تقضم وتهضم.. وغريزة تنطلق بغير ضوابط أو حدود.. ولا شيء غير ذلك، فمحور الحياة لديه يدور فقط حول الطعام والجنس، وكانت النتيجة أن باءت هذه الفلسفة بالفشل الذريع، وتحطم في شهور قليلة ما بنته هذه الأيديولوجية في سنوات تحت السياط وبالحديد والنار، وصدقت وتحققت سنة الله الجارية في خلقه والتي لا تتخلف أبدا.

(إِنَّ اللَّهَ لا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ) (يونس: من الآية٨١).هذا هو الشق الأول في المحور الأول.

الشق الثاني في المحور الأول:

الأيديولوجية الليبرالية أو الرأسمالية وفكرة الصراع:

أما الشق الثاني فهو الأيديولوجية الليبرالية أو الرأسمالية.

والمكون المعرفي لهذه الأيديولوجية (الليبرالية أو الرأسمالية) التي بنيت وتأسست عليها حضارة الغرب الحالية، هو السيادة المطلقة للمال، ومن ثم منحت أصحابه -بمقتضى القوة- أن يفعلوا بمفردات الطبيعة والكون ما يحلو لهم ولو عبثًا بالحياة أو عدوانًا غير مبرر على المنظومة الكونية ومفردات الطبيعة بكل أنواعها، وتدميرًا لمنجزات الإنسان فيها، ومن ثم

فقد تغيرت قيم وسادت شعارات جديدة، واستعملت مفاهيم في عكس معناها، الأمر الذى أحدث فوضى تشبه الانقلاب في عالم الثقافة والفكر.

التنمية والمفهوم المعكوس:

وبدلا من أن تكون التنمية بمفهومها الحقيقي تنمية للفرد أولا وازدهارا لطاقاته الجسمانية والفكرية والروحية واستثمار ذلك كله لتنمية قلبه ووجدانه وتعمير نفسه ببواعث الخير والحب لتتأكد إنسانيته وقدرته وتطوره حتى يستطيع المشاركة الخلاقة في بناء عالم من القيم العليا تسوده علاقات المحبة والمصالح المشتركة وتزدهر فيه الثقافات وتتعايش الحضارات جنبا إلى جنب بغير عداوات أو كراهية وصراع، وذلك كله لا يتحقق إلا بتطبيق التنمية بمفهومها الأخلاقي والحضاري الشامل الذي تتعطش له الإنسانية وتهفو له قلوب غالبية سكان العالم، إلا أن الرأسمالية بجشعها غيرت هذا المفهوم وقصرته على الجانب الحسي المحدود ، وأضحى مفهوم التنمية في المكون المعرفي لديهم معكوسا ومنتكسا لا يخضع إلا للسوق والبورصة وقوانين الربحية المادية المطلقة "والتنمية -كما تطلق عليها مجتمعاتنا الغربية المعاصرة- يتم تحديدها تبعا لمعايير معينة أحادية الجانب، واقتصادية صرفة، فهي تنمية نوعية للإنتاج والاستهلاك ، لا تعتمد على إرادة الإنسان أو على خاصية من خواص الحياة"

"واليوم تتواجه "البلدان المتقدمة" "والمتخلفة " التى نطلق عليها بنفاق: البلدان النامية في حين أن التباعد بين الفئتين لا ينفك على العكس من ذلك في الازدياد " (١٤).

ومما لا شك فيه أن التعايش بين الحضارات يصبح شعارا مفرغا من أى معنى حقيقى طالما أصر الطرف الأقوى على عملية النـــزح المستمر لثروة الضعيف وتكريس مبدأ السيطرة عليه وإخضاعه قهرا وقسرا، ومن ثم فقد أضافت الرأسمالية خطيئة أخرى إلى سجل خطاياها حين أصرت في المكون المعرفي لديها على معالجة الخطأ بخطأ أكبر، ومداواة الظلم بمظالم أشد وأعتى.

---

١٤ الإرهاب الغربي ج١، الفصل الثالث نشأة المتوحشين، ص ١١٨ـــ ١١٩، للمفكر الفرنسي جـــارودي، ترجمة: د. ناهد عبد الحميد، مكتبة الشروق الدولية، الطبعة الأولى ٢٠٠٤.

"ودون اللجوء إلى تحليل مسبق للآليات التاريخية التي أضعفت معايير المقارنة وولدت مظاهر الخلل الاقتصادي المتزايد بين الغرب وبقية العالم ، يمكننا باختصار القول: أنه إذا كان حوار الحضارات الذي يسمح بالتفعيل المتبادل للثقافات محظورا أو زائفا، فقد أصبح مستحيلا الخوض فعليا في هذا الحوار الآن"

ولقد كانت الممارسات وما زالت تمثل أعلى مستوى من الخلل المعرفي الذى تولد منه وتفرع عنه نكران مستمر للآخر وعدوان عليه يصل في بعض الأحيان إلى حد الإبادة الجماعية وجرائم الحرب وبطريقة أكثر إيجابية نستطيع القول إن تنمية الغرب كان شرطها الأساسى هو نهب القارات الثلاث واستنـــزاف ثرواتها لصالح أوروبا وأمريكا الشمالية بالتبادل، فالغرب هو الذي أدى إلى تخلف ما نطلق عليه "العالم الثالث".

والتخلف هو التعبير عن علاقة استغلال بلد لبلد آخر، بمعنى آخر فالتنمية والتخلف هما مكونان لنظام واحد ألا وهو النظام الرأسمالى، إن تكديس الثروات ونماءها (الذى نطلق عليه لفظ نمو) يتم على عدة مراحل هي:

- إبادة هنود أمريكا بدءا من القرن السادس عشر.
- تجارة العبيد التى كانت ضرورية لاستغلال مناجم واراضى أمريكا لخلوها من سكانها بسبب الإبادة.
- بداية الاستعمار بالمعنى الصرف للكلمة أي السيطرة السياسية والعسكرية على إفريقيا وأكبر جزء من أسيا وأمريكا اللاتينية لضمان الاستثمارات المربحة للغاية في الصناعة والتجارة عن طريق فرض الأسعار البخسة على الأيدى العاملة، والأسعارالمرتفعة للمنتجات المستوردة " (١٥).

وتجاهلت تلك الأيديولوجية حقائق الكون وشهادة التاريخ بوفاة حضارات سابقة كانت أشد قوة وأعظم جبروتًا، كما تجاهلت القوى المسيطرة على هذا الكون والمتمثلة

---

١٥ الإرهاب الغربي، ج١ الفصل الثالث نشأة المتوحشين ص ١١٨ـــ ١١٩ للمفكر الفرنـــسي جـــارودي، ترجمة: د. ناهد عبد الحميد، مكتبة الشروق الدولية طبعة أولى ٢٠٠٤.

في المجد الإلهي الأعلى الذي يمسك بزمام الوجود وتتجلى قيوميته على كل صغير وكبير في جزئياته وتراكيبه. وكانت النتيجة أن وقعت الحياة كلها أسيرة الاستهلاك البشع في القيم والمبادئ والأشياء..!.

وصحيح أن الآلة تقدمت، لكنَّ الإنسان قد تأخر، لأنه تحول في ظل تلك الفلسفة إلى مجرد رقم في بنك، أو في معادلة حسابية تزيد بها جداول الإحصاء أو تنقص حين تعرض بيانات الإنتاج وحجم الأرباح في أسواق المبيعات، بعد أن تفننت وسائل الإعلان عن السلع في إغراء هذا الكائن بمزيد من الاستهلاك البشع مع كل يوم جديد، دون التوقف عند حدود مستوى تلبية الحاجات، وإنما تجاوزت تلك الحدود لتصل به إلى حالة من اللاإشباع من المتع، وسعار الشهوات، والتفريغ في المبادئ والقيم، ليستمر دوران الآلة، وليبقي لأصحاب رأس المال نفوذهم وسيطرتهم وقدرتهم على التحكم والتأثير وتوجيه دفة الحياة وفق ما يريدون. يقول المفكر الفرنسي روجيه جارودى:

"إن نشأة مجتمع يطغى عليه التنافس بين الإنسان على السوق، أدى إلى ظهور أيديولوجية ساعدت على إرساء هذه الممارسة، وغيرت المفهوم القديم للعلاقات بين الإنسان والطبيعة، وبين الإنسان وربه، فالعلاقة بين الإنسان والطبيعة -وهي إحدى خصائص عصر النهضة هى علاقة بين منتصر ومهزوم، والعلاقة بين الإنسان والإنسان هى علاقة شخصية للغاية.. من هنا ظهرت فئة رجال الأعمال بالمعنى الإيجابي والسلبي للكلمة. إن هذه الرغبة في تحقيق المنفعة والسيطرة، تماثل إرادة المغامر الأسباني الذي لم يتردد في عبور حدود العالم المعروف ونهب القارات والحضارات، كما أدت النهضة كذلك إلى نشأة علاقة جديدة بين الإنسان وربه، وبدأت السيطرة التقنية على الطبيعة مع كل ما ينتج عن ذلك من مظاهر إيجابية وسلبية، فالإنسان ذو الهدف الأوحد المنغمس في العقلانية السقراطية (١٦) أكد ذاته في مغامرة النهضة، واتسم الجانب العملي لهذه العلاقة بالرغبة في تحقيق المنفعة وفرض السيطرة التي تميز الرأسمالية الوليدة.

---

١٦ العقلانية السقراطية عرفها جارودي نفسه بأنها: (فلسفة قائمة على العقل في ميادين المعرفة والأخلاق).

وهكذا خلف المذهب الذي ينادى بالاستسلام للعقلانية السقراطية مذهب ضمني آخر يقوم بالحث على تلك الرغبة في تحقيق المنفعة وفرض السيطرة الرأسمالية، وأصبحنا نواجه في الربع الأخير من القرن العشرين أزمة عميقة في الثقافة الغربية نشأت في بادئ الأمر مع ما أطلقنا عليه النهضة، وهي ليست بظاهرة ثقافية، ولكنها ظاهرة تجمع بين الرأسمالية والاستعمار.

رأسمالية، أي مجتمع أدى إلى ظهور الإنسان ذي الهدف الأوحد الذي يتوقع أن يؤدي التطور اللانهائي للعلوم والتكنولوجيا إلى إشباع رغبته في السيطرة والمنفعة.

واستعمار أي مجتمع يزعم تحويل الإنسان الآلي إلى المعيار الذي يتم به تقييم كل شئ، والمحور الوحيد للمبادرة التاريخية والمنبع الوحيد للقدرة مستنكرا في ذلك ومدمرا كل الثقافات غير الغربية، وجميع أنماط القيم الأخرى للتفكير والحياة"(١٧).

"ولم ينجح النظامان الاجتماعيان في الشرق والغرب، لا الأول ولا الثاني، في الإجابة عن هذه الأسئلة الخاصة بالأهداف النهائية؛ فقد فشلت الرأسمالية لأنها لا ترى أي هدف سوى النمو الكمي لإنتاج السلع والخدمات وأرباحها (١٨).

وفشلت اشتراكية الدول في نموذجها السوفيتي. واتخذت لنفسها هدفا، لكن اتضح أنها غير قادرة على الوصول إليه بالوسائل التي استخدمها.

لقد ولدت كل منهما على نفس التربة الثقافية الغربية، اشترك النظامان في اليقين الزائف نفسه، الصادر من غرور النهضة، وهو أن "العلم" التجريبي والرياضي يمكن أن يجيب على كل المشكلات ويحلها. فالوسائل الهائلة التي خلقها ستضمن السعادة.

فلقد فشل العلم التجريبي في ذلك، مثلما علم الاجتماع الوضعي. أفلست هذه الفرضية الأولى، مثلما فشلت في أن تحل محل الأخلاق. وبالطبع فشل العلم التجريبي والتكنولوجيا في أن يقودا وحدهما الإنسانية بنجاح.

---

١٧ الإرهاب الغربي، ج١ الفصل الثالث نشأة المتوحشين، ص ١١٥، للمفكر الفرنسي جارودي، ترجمة: د. ناهد عبد الحميد، مكتبة الشروق الدولية طبعة أولى ٢٠٠٤ .

١٨ حفارو القبور ص ٨٨

هكذا، ولد نوع جديد من البشر: الإنسان المبرمج ويعني هؤلاء الذين يشبهون العقول البشرية بالكمبيوتر، متناسيين أن خاصية الإنسان هي طرح الأسئلة النهائية، وقبلها أسئلة لماذا وما الأهداف النهائية (١٩).

غياب الكنيسة عن أداء دورها:

وأمام هذا السيل الجارف والمسعور انقطعت صلة الإنسان بالجانب الروحي، وساعد على ذلك غياب الكنيسة عن أداء دورها وفقدانها للتأثير في توجيه الإنسان، بل إنها لم تغب فقط عن الـتأثير، وإنما تحولت لتعمل ضد الأهداف الأساسية لوجودها، فأباحت للناس ما كان بالأمس محظورًا ومحرمًا، وأضحى لها مَن يمثلونها في هيئات مشبوهة، ومنظمات تستبيح الشذوذ وتعمل على انتشاره في كل البلاد..!

فإذا أضيف إلى هذا الوضع موقف الكنيسة الموروث من قضية التفكير والعلم والصراع الذي نشأ بين الكنيسة والعلماء، فإننا نستطيع أن نفهم رفض المجتمع الليبرالي لسيطرة الكنيسة التي اعتقلت العقل ونفته، وطردت كل من يجرؤ على التفكير الحر أو يدعو لفكرة علمية، واعتبرت إهمال العقل والتخلص من التفكير شرطًا للدخول إلى ملكوت السماء.

وقالت لأتباعها في صراحة ووضوح: "أطفئ سراج عقلك واتبعني".

بل راحت تقسم الوجود قسمين: قسم لقيصر لا علاقة لله به، وهو: هذه الدنيا .

وقسم آخر لله وهو: ما بعد هذه الحياة، وقالت لأتباعها:

(أعط ما لقيصر لقيصر، وما لله لله).

خطورة الفصل بين عالمين كلاهما من صنع الله:

وبهذا انفصل الوجود والكون عن خالقه ومدبر أمره في حس وشعور أتباعها، ولم يَعُد للبعد الغيبي والروحي حضورٌ أو تأثيرٌ في ممارسات وسلوكيات رجل المدَنِّية المعاصرة، حيث اختل التوازن القائم بأصل الخلقة والتكوين فيه بين عالمين كلاهما من صنع الله. عالم المادة، وعالم الروح.. عالم العقل والفكر، وعالم القلب والشعور والوجدان..عالم الغيب وعالم الشهادة..

---

١٩ المرجع السابق ص ٨٩

البديل العاجز:

وبهذا الفصل فقدت الحياة أهم العناصر التربوية المؤثرة في إصلاح وتصحيح الأعماق والوجدان، ولم تقدم القوانين الوضعية بديلاً جادًا في خلق الضبط الإرادي والأخلاقي لدى الفرد والمجتمع، حيث القوانين الوضعية بحكم بشريتها لا تستطيع أن تتعامل إلا مع بعض مظاهر الجريمة دون أن تتسرب إلى داخل النفس بالعلاج الناجع وذلك عكس ما يقوم به المكون المعرفي في إصلاح الظاهر والباطن معًا. ولأن القانون يتعامل مع الظواهر الخارجية للإنسان دون أن يتدخل في بواطنه بحسم الدوافع وتوجيهها الوجهة النافعة، فهو يركز كل اهتمامه على الأعراض دون الأمراض، فلا تنقطع لها جذور، وذلك أيضًا عكس ما يقوم به المكون المعرفي في التدخل حتى في النوايا المضمرة وما يرتبه على حسن النية أو سوء النية من ثواب وعقاب.

وهكذا تفوت على القانون كل الحِيل الخادعة، وتمر أغلب أعمال العدوان والظلم بغير عقاب. بينما المكون المعرفي في الحضارة الإسلامية والذي يعتمد الإيمان مصدرا له يجعل صاحبه في نهار دائم من المراقبة واستحضار الجناب الأعلى، فلا يتناقض فيه ظاهر وباطن، ولا تغيب فيه نية عن عمل أو سلوك، ومن ثم يستقيم به وعليه الإنسان بكليته وتنضبط فيه الحركة والنية، والقول والفعل والفكر والسلوك، وذلك أرقى ما يمكن أن تصل إليه مستويات التهذيب وتنمية الضوابط الإرادية في تكوين الإنسان وتربيته.

خطيئة الأيديولوجية الرأسمالية:

من هنا فقد كانت خطيئة الأيديولوجية الرأسمالية بإهمال المكون المعرفي لديهم، للجانب الروحي والغيبي الذي لا يقل إهماله فداحة وخطورة في آثاره عن الماركسية حين جحدت الألوهية وتنكرت لآثار الإيمان بها في صلاح الفرد والمجتمع والأمة.

نزعة الصراع نضح للمكون المعرفي:

نزعة قديمة بقفاز جديد

الرأسمالية لم تنفك يوما عن أطماعها الواضحة حينا والمستترة حينا آخر، وكثيرا ما سمع العالم عن شعارات براقة ظاهرها الرحمة وباطنها العذاب.. وكعادتها في اختراع

المصطلحات وتسويق المفاهيم ابتكرت مفهوما جديدا يوسع دوائر الخضوع والسيطرة وبدلا من أن تكون السيطرة لجهة واحدة معروفة ومحددة ويمكن التعامل معها إما بالبعد أو المقاومة نشأ مفهوم آخر يشترك فيه كل الأقوياء في النهب والسيطرة، ويشترك فيه أيضا كل الضعفاء في الخضوع والهوان والفقر ومن ثم كان الشمال والجنوب، والدول المتقدمة والدول النامية، والاتحاد الأوروبي في مقابل التمزق والكيانات الصغيرة، والدول الصناعية المانحة والدول الأخرى النائحة وهكذا وضمن هذا كله بدأت الشركات العملاقة في شراكة متعددة الجنسيات ليكون الاختراق أقوى والمقاومة أقل، وتمت عملية فرض الشروط والاستجابة من أغلب الدول لتلبية مطالب السادة الكبار.

يقول الأستاذ محمد حسنين هيكل:

"نشأت دويلات لها علم ونشيد وطني، تحتفل كل عام بعيد الاستقلال، لكنها بالطبع تدخل ضمن ممتلكات تلك القوى وتتلقى منها كل الأوامر والتعليمات، وإذا تصور أحد أن تلك القوى الجبارة تحصر همها في شؤون الاقتصاد بعيدا عن السياسة والتوجيه فإن مثل هذا التصور نوع من طيبة القلب الزائدة، تنتظر من أسراب المرجان أن تسبح بأمان وسط قوافل الحيتان، ومنها بالطبع أسماك قرش كثيرة، شرهة ومفترسة" إن فقراء العالم يعيشون حالة دوار، فقد تبخرت ثورة التطلعات التى رافقت ثورة التحرر الوطني، فإذا السيطرة تعود في صورة أخرى يمثلها البنك الدولي وصندوق النقد، وقد أصبحت دبلوماسية كل منهما بديلا -في مطلع القرن الواحد والعشرين- لدبلوماسية البوارج التي عرفتها مطالع القرن التاسع عشر كما يقول الاقتصادي البريطاني الشهير"آلان والترز" الذي كان لسنوات عديدة مستشارا لمارجريت تاتشر وقد كتبه ونشره في صحيفة التايمز في شهر أكتوبر سنة ١٩٨٤. فالأغنياء اليوم يملكون فرض الشروط على الفقراء في ميادين التنمية الاقتصادية والاجتماعية، وقد تأكدت سيطرتهم بسلطة البنك الدولي وصندوق النقد، وأضيفت إليهما أخيرا منظمة التجارة العالمية التي انتهت إليها مفاوضات الجات، والخشية لدى كثيرين أن شروط التجارة المقبلة سوف تجهض آمال التقدم لدى الفقراء وسوف تزيد الفجوة بينهم وبين الأغنياء، وسوف تضيف إلى النـــزح الاستعماري القديم للموارد نزحًا جديدًا باسم حرية التجارة هذه المرة، وربما يستوقفنا أن

تقديرات جولة أورجواى تعطي مجموعة الدول الأوربية وحدها أرباحا تقدر بثمانين مليار دولار سنويا في مقابل خسائر للدول الإفريقية البائسة جنوبي الصحراء تقدر بحوالي ثلاثة مليارات دولار سنويا.

في العالم الغني إدراك واع ومميز لدور الدولة في عمليات التنمية والتجارة. وفي مقابل ذلك دخان أزرق يحمله شعار الخصخصة وشروط البنك الدولي يخطر الفقراء بأن الدولة قد أعفيت من مسؤوليات التنمية في العصر الحديث، وأنها الآن حكم بين الطبقات، وممثل لأبهة الوطن في المظاهر والمراسم والمناسبات" (٢٠).

وهكذا تفقد الدول استقلالها وسيطرتها، ويتحول دورها إلى مجرد حامل للبريد الذي يأتي من الخارج، ربما ليس من حقه أن يفتح الرسالة القادمة إلا بعد استئذان المرسل إليه في الداخل، وهي الشركات المتعددة الجنسيات والمؤسسات التابعة لها، أو في أحسن الأحوال تأخذ دور المنسق بين مطالب السادة الجدد في الداخل ومظاهر أبهة الدولة ذرا للرماد في عيون الحاسدين. وهكذا يظهر أثر ودور المكون المعرفي في الفلسفة الرأسمالية في توجيه حضارات الغرب نحو إخضاع الآخر والسيطرة عليه واختراقه تحت تهديد السلاح وكأن العالم لا يعيش حضارة عصر إنساني وإنما يعيش حالة أشبه ما تكون بالقرصنة والسطو المسلح يقول جارودي:

- وأخيرا مع تشكيل ونمو الشركات متعددة الجنسيات، ظهر نمط جديد من استغلال العالم الثالث فهذه العلاقات لم تعد ثنائية بين البلد الأم والمستعمرة، فالشركات متعددة الجنسيات وهى شركات أجنبية داخل حدود الدولة الوطنية تنظم في الواقع عملية نهب -ليس فقط على المستوى القومى ولكن على المستوى العالمي– معتمدة في بعض الأحيان على القوى الكبرى" (٢١).

---

٢٠ الإدارة السياسة في النظام الدولي الجديد، محاضرة للأستاذ محمد حسنين هيكل ألقيت في مؤتمر الإدارة المصرية المنعقد في مدينة الإسكندرية يوم ٢٧ اكتوبر .١٩٩٤، ونشرت في حلقتين بجريدة الخليج العدد ٥٦٤٧ والعدد ٥٦٤٨ سنة ١٩٩٤.

٢١ حفارو القبور ص١١٩.

ومن ثم يظهر الوجه الحقيقي لمظاهر النهضة في تلك الحضارة وهو وجه لا يستطيع أن يختفي بعيدا وراء كل الأقنعة التي تدارى البثور وتخفى تحتها أنواع شتى من العلل والسخافات "إن أسطورة النهضة الأوروبية التي تخفى وراءها زوال صفة الإنسانية أدت في الواقع إلى سيطرة السوق وتفرده وإلى تقديس المال وانقسام العالم عن طريق النهب الاستعماري والاستقطاب المتزايد حتى في أوروبا إلى قسمين: من يملك، ومن لا يملك. والانقسام يعنى تدمير الإرادة الجماعية لتحقيق الصالح الخاص" (٢٢).

وإذا كانت الرأسمالية في مكونها المعرفي تؤسس على كل ما شرحناه سلفا وترتكب من الخطايا ما تسود به وجه الحضارة، فإنها لم تتوقف عند التنكر لآثار الإيمان وإهمال البعد الغيبي في حياة الإنسان فقط، وإنما بدأت تجتر روح العداء القديم، وتحي أسبابه من جديد، فبعد سقوط الشيوعية وذهاب ريح القطب الماركسي راحت أوروبا عمومًا، والولايات المتحدة بشكل خاص، تبحث عن عدو بديل حتى لا ترتخي إرادتها وتفتر همتها وتذوب إرادة التحدي في كينونة وقلب استراتيجتها، ولم يكن بين العقائد والثقافات وحتى الحضارات من بقي مستعصيًا على الذوبان والفناء غير الإسلام، فهو المتفرد في الجنوب بالبقاء رغم كل محاولات العدوان عليه.

وتستدعي الذاكرة الموثقة نصوص الغربيين أنفسهم لا من دائرة واحدة من دوائر حضارتهم، وإنما من مختلف دوائرها حول موقفهم منَّا، فلعل شهادتهم هم أن تنير لعقلنا العربي والمسلم سبيل الحكم العادل في هذا الموضـــوع" (٢٣).

ففي عدد يناير ١٩٩٠ نشرت المجلة البريطانية المتخصصة والرزينة "شؤون دولية" مقالاً يكشف عن روح العداء للإسلام وأهله جاء فيه: "لقد شعر الكثيرون في الغرب بالحاجة إلى اكتشاف تهديد يحل محل التهديد السوفيتي، وبالنسبة لهذا الغرض فإن الإسلام جاهز في المتناول".

---

٢٢ نفس المصدر ص ١٢٠

٢٣ الإسلام والتحديات الجديدة، د. محمد عمارة، ط/١ ندوة الثقافة والعلوم دبي١٩٩٣ .

ولسوء حظ العدو الموهوم، كان عليه أن يتحمل مسؤولية كم هائل من الضغائن والأحقاد القديمة، حملتها صدور غيره، ولم يكن الإسلام هو سبب في وجودها يومًا ما، هذه الضغائن والأحقاد عبَّرت عنها رئيسة الوزراء البريطانية "مارجريت تاتشر" حين قالت عقب سقوط الكتلة الشرقية: "الآن انتهى الغرب من العدو التاريخي وبقي العدو الأزلي". وحين سئلت إبان حرب الخليج في بداية التسعينات عن العدو الأزلي لم تكن في حاجة لهز الكتف، وهي تردد: "الإسلام طبعًا"(٢٤).

دور الآلة الإعلامية في الخداع وتأجيج الصراع:

أصبحت "الحقيقة" سلعة تباع وتشترى، ويتم تكييفها طبقا للهدف المطلوب. يعتمد الإعلام من الآن فصاعدا على دعم الإعلان، الذي يتحكم في تمويل البرامج واختيار مقدميها. والسياسة الكبرى هي كيفية إعداد الشعب إعدادا جيدا للعبودية –من اليمين أو من اليسار– عن طريق الشاشة الصغيرة وهو يبتسم في سعادة وغفلة! وإذا كان من السهل حكم الشعب الجاهل، فما أسهل ذلك عن طريق التلفزيون" (٢٥).

ومن ثم عملت الآلة الإعلامية عملها في تهيئة المناخ وتجهيز النفوس وشحن الرأي العام بطاقةٍ من الغضب تجعله يؤمن بضرورة التخلص من هؤلاء الأشرار البرابرة الذين يسمَّون بالمسلمين ويعتقدون في إله الخراب الذي يعبدونه، وعندئذ يكون للانتقام ما يبرره، ويصبح سحق هؤلاء ضرورة لحماية السلام العالمي يفرضها مجلس الأمن، ويقوم على تنفيذها بأيد طليقة وعدالة مطلقة البطلُ الواحدُ والوحيدُ، وبذلك يتخلص الغرب من المنافس الاقتصادي والبديل الحضاري، وينتهي من هذا العدو الأزلي؛ لتخلو له الساحة مرة أخرى، بعدما خلت من قبل بسقوط الشيوعية، ويتمكن من بسط نفوذه وسيطرته على كل منابع الثروة بغير منازع، وفي نفس الوقت يكون النموذج العراقي جاهزًا للتطبيق في أي وقت وفي أي مكان، وتصبح العصا والجزرة أمام أي شاة شاردة

---

٢٤ حقيقة الغرب بين الحملة الفرنسية والحملة الأمريكية، مصطفى عبد الغني، مركز الحضارة العربية، ٢٠٠١ ص ٣٧.

٢٥ حفارو القبور، ص ٧٩ .

وعليها أن تختار. والوسائل إلى ذلك حملات متنوعة: بعضها ثقافي وفكري، وبعضها عسكري، وأغلبها وأكثرها شراهة وتشويها للصورة الإسلامية في أي نمط من أنماطها هي الحملات الإعلامية.

ولقد اعترف بذلك صراحة قادة الفكر وقادة الجيوش العسكرية، "فإدوارد مورتيمر" يعترف قائلا: "إن الإسلام مقاوم للعلمنة، وسيطرته على المؤمنين به أقوى الآن مما كانت قبل مائة سنة مضت، ولذلك فهو -من بين الثقافات الموجودة في الجنوب- الهدف المباشر للحملة الغربية الجديدة، ليس لسبب سوى أنه الثقافة الوحيدة القادرة على توجيه تحدٍ فعلي وحقيقي لمجتمعات يسودها مذهب اللا أدرية وفتور الهمّة واللا مبالاة، وهي آفات من شأنها أن تؤدي إلى هلاك تلك المجتمعات ماديًّا، فضلاً عن هلاكها المعنوي" (٢٦).

وكانت تصريحات "ويلي كلايس" الأمين العام لحلف الأطلنطي في منتصف تسعينات القرن العشرين دليلا آخر على العداء القديم وسوء النية، حيث أعلن أن الإسلام هو العدو الذي حلَّ محل إمبراطورية الشر الشيوعية" (٢٧) ومن ثم كان الانتشار الواسع لمصطلحي "حوار الحضارات" أو "صراع الحضارات".

هذه هي المكونات العقدية التي حكمت وتحكم الحضارة الغربية بشقيها الماركسي والليبرالي.

الحضارة الإسلامية والحاضر الغائب:

فماذا عن الحضارة الإسلامية؟

يقولون في الأمثال: "الدنيا إذا أقبلت على أحد أضفت عليه محاسن غيره، وإذا أدبرت عنه سلبته محاسن نفسه" وهذا المثل بكل ما يحمله من مرارة إدبار الدنيا ينطبق على الحضارة الإسلامية، فهي الحضارة التي أعطت العالم، وساهمت في تنويره، وكشفت

---

٢٦ مجلة شؤون دولية، عدد يناير سنة ١٩٩١ .

٢٧ المصدر السابق .

عن كثير من مساحاته ظلمات الجهل والتخلف، إلا أن الدنيا أدبرت عن أهلها فتنكر لهم أغلب سكان المعمورة، وأصبح أهلها يعانون من الغربة على كل المستويات، وعلى جميع الأصعدة.

فعلى المستوى السياسي ليس لها دولة ولا أبوة سياسية، والأنظمة التي تنتمي إليها لا تعرف تداولاً للسلطة، ولا مؤسسات للقرار، وليس هناك غير الرجل الواحد، والرأي الواحد، والنظام الواحد..!.

وعلى المستوى الاقتصادي يعيش أهلها فوق بحار من الثروة، ولكنهم متخلفون فقراء، يستجدون المعونات، ويعيشون على فضلات ونفايات الحضارة الغربية...!

وعلى المستوى الاجتماعي تتفشى فيهم أمراض الفوضى والتخلف والأمية والاستبداد والقهر..!.

وعلى المستوى العلمي تعاني جامعات العالم الإسلامي من بيروقراطية خطيرة تقتل الإبداع وتحطم المواهب وتدفع بالكفاءات نحو الهجرة فرارًا وقهرًا..!.

وفي الغرب الآن يتولد توجه يحاول استلاب تلك الحضارة كل عطاءاتها ومنجزات علمائها ورجالها.

ومع ذلك لا زالت تعيش وتقاوم، تتقلص حينًا لدرجة أنك تظن أنها ماتت أو كادت تموت، ولكنها لا تلبث أن تنتفض.. تتآمر الدنيا عليها بعد أن أدبرت عنها، ولكنها أيضا تفاجئ الدنيا بقيمها التي تصحح الأخطاء وترتفع بالإنسان والدنيا لتذكر كليهما بما يجب أن يكون عليه الإنسان والدنيا. عجيبة تلك الحضارة في ضعفها وقوتها وهبوطها وارتفاعها، والتفاف الناس حولها وانصرافهم عنها.

سر الحياة والحيوية في تلك الحضارة:

فما هو ذلك السر العجيب الذي يمدها دائمًا بإكسير الحياة حين توشك أن تغيب عنها الحياة؟. وهذا السر يكمن في المكون المعرفي الذي استبقاها وسط العواصف شامخة وإن انصرف الناس عن أهلها وتنكرت لهم سبل الحياة.

إنه الإسلام العظيم الذي ارتبط وجودها بوجوده وبقائها ببقائه، رغم غياب الأبوة

السياسية التي تتبناها وتدافع عنها، ومن هنا كان الخوف منه والهجوم عليه. يقول المفكر الإسلامي الدكتور محمد عمارة: "لما كان الإسلام هو المكون الأساسي والقاسم المشترك الأعظم في القسمات والسمات التي كونت وتُكَوِّن روح حضارتنا العربية والإسلامية، فلقد كان "التغريب" وهو بعيد عن الهوية الإسلامية – و"الجمود" وهو محسوب على الإسلام زورًا وبهتانًا صدعًا في وحدة الهوية لأمتنا العربية والإسلامية.

فالإسلام هو الذي نهض بالدور الأكبر في حشد جميع طاقات الأمة حتى استطاعت اقتلاع الكيانات الاستيطانية الصليبية التي زرعها الغزاة الصليبيون في قلب وطننا قرابة القرنين من الزمان. ولقد تعلم الاستعمار من ذلك الحدث درسًا نسيناه نحن المسلمين. فمنذ بدء الهجمة الاستعمارية الحديثة على بلادنا كانت عين كل دول الاستعمار على الإسلام، تسعى لعزله وتجريد الأمة منه، كي لا تتسلح به في مقاومة الغزوة الإمبريالية كما تسلحت به قديمًا في صراعها ضد الصليبيين. ولم يكن الإسلام الذي يسعى المستعمرون إلى تجريد الأمة منه، وإلى عزلها عنه، هو إسلام الشعائر والعبادات والطقوس... بل كان "الإسلام السياسي" إسلام الدولة والحكم "إسلام النظام الاجتماعي والاقتصادي"، لأن الاستعمار كان يريد الثروة، ويسعى للسيطرة عليها بالدولة، ومن ثم كانت الخصومة بينه وبين الإسلام السياسي المنظِم للدولة الإسلامية والمحدِد لهويتها المناقضة لما يريده الاستعمار" (٢٨).

دور الشريعة في النهضة:

"من المعروف بداهة أن العين لا ترى لوحدها وإنما لا بد من وسط يعين على الإبصار، فإذا وجدت العين كاملة وكان الوسط الذي يعين على الإبصار غير موجود فإن العين لا ترى ، والعقل البشري إنما هو البصر، والشريعة هي النور أو هي الوسط الذي يعين على الإبصار، فمن سار في النور بلا عقل كان كالأعمى الذي يمشي في النور، ومن اعتمد على عقله بعيدًا عن نور الشريعة يكون كالمبصر الذي يمشي في الظلام الدامس فتنعدم رؤيته، لأن العقل وحده لا يستقل بإدراك الحقائق .

---

٢٨ الإسلام والمستقبل، د. محمد عمارة، ص،٥١ نشر دار الشروق، الطبعة الثانية ١٩٨٦م

لذلك يتأكد دور الشريعة السماوية في حماية العقل من الشرود وتزويده بالرؤية الممتزجة بالبصيرة، فإذا اجتمع الشرع والعقل فذلك نور على نور، نور البصر ممثلاً في العقل البشري، ونور الوحي ممثلاً في شريعة الله السماوية ، ومن امتزاج النورين معًا تتولد الشرارة التي تحفز العقل والفهم الناضج، وتتكامل في رؤيته الأبعاد كلها، فتأتي أحكامه مصحوبة بالاستقامة المستمدة من استقامة الشريعة" (٢٩).

ومن هنا ندرك خوف الاستعمار وانزعاجه من كل دعوة لتطبيق الشريعة والعيش في كنفها، لأنه يعلم تماما أن نسيج الإيمان في جموع الأمة لا يمكن أن يتكامل ويتفاعل ويؤدى دوره بإيجابية في إحداث اليقظة والإقلاع الحضارى إلا في كنف تلك الشريعة التى تجمع في أحكامها بين الوعي والإدراك لحقائق الوحي وبين متطلبات الحياة المدنية من منجزات العلم الحديث، ومن ثم تحمى عقول الأمة ومستقبل أبنائها من الوقوع في الشراك الخادعة ولا ينطوي عليها البريق المزيف، وإنما تأخذ من مدنية الغرب أشياءها وتستفيد بما أنجزته دون أن تفقد هويتها وأصالتها، ودون أن تتأثر بموجات المسخ والتشويه التي عادة ما تصحب الاستفادة من مبتكرات العلم ومنجزات الحضارة وهذه الرؤية قد دعا إليها الأمة ونبه لضرورة الأخذ بها كلُّ مفكر أصيل مخلص وكان في مقدمة هؤلاء العلامة النورسي الذي طالب الأمة أن تستفيد من علوم الغرب دون أن تتأثر بآثار الفلسفة الغربية الجاحدة، وقد ربط ببصيرته بين ضياء القلب، ونور العقل في معرفة الحقيقة، فقال: "ضياء القلب هو العلوم الدينية، ونور العقل هو الفنون المدنية.

وبامتزاجهما تتجلى الحقيقة، وبافتراقهما تتولد الحيل والشبهات في هذا، والتعصب الذميم في ذلك" (٣٠).

---

٢٩ انظر كتاب: من قضايا التحدى في القرن الواحد والعشرين للمؤلف، ص ٤٣ــ ٤٤ ، مطبعة سوزلر فرع القاهرة، الطبعة الأولى ٢٠٠٢ .

٣٠ المثنوي العربي، المجلد الأول ص ١٤، للعلامة بديع الزمان سعيد النورسي، تحقيق: إحسان قاسم الصالحي، دار سوزلر للنشر، الطبعة الثانية ١٩٩٤.

ولذلك فنحن نحتاج إلى التركيز الشديد على الربط بين الضيائين أو بين النورين، ضياء القلب ونور العقل حتى تخرج أمتنا من دائرة العجز والتخلف والتبعية وتعود إلى دينها عودا حميدًا، وذلك هو الأمل الذي ترنو إليه عيون كل الأمناء من أبناء الإسلام في كل عصر ومصر.

المصدر الأساس في التكوين المعرفي للحضارة الإسلامية:

ولما كان القرآن الكريم هو المصدر الأساس في التكوين المعرفي للمسلمين، فلنبدأ بحديث عام عن علاقة الإنسان بالكون في كتاب المكون المعرفي لدينا، وكيف تحدث بتفصيل عن أسس ومصادر البناء الحضاري سواء أكانت مصادر طبيعية، أم كانت جهودا إنسانية تتمثل في طاقات الفكر والعقل واستخدامها لكل ما هو متاح ومسخر لنا في هذا الكون.

مصادر الثروة الطبيعية والدور الحضاري:

القرآن الكريم باعتباره الوعاء والمحتوى للمكون العقدي والمعرفي لدى المسلم لفت أنظارنا إلى ضرورة الانتفاع بمصادر الثروة في أكثر من موضع، منها قوله تعالى: (اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ، وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ، وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ) (ابراهيم:٣٢-٣٤).

ويلاحظ هنا كلمة لكم وكيف تكررت في النص خمس مرات، وذكرت في أكثر من مجال، منها على سبيل المثال:

* في مجال الثروة الزراعية والثروة المائية تأتي كلمة لكم دلالة على التسخير ووجوب الاستفادة مما هو متاح في الكون بأصل الخلقة والتكوين من غير جهد من الإنسان أو تعب.

(وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَكُمْ) (البقرة: من الآية٢٢).

* وفي مجال الانتفاع من وسائل النقل والمواصلات البرية والبحرية تأتي أيضًا كلمة لكم لتحفز قوى الإنسان إلى ضرورة ووجوب الاستفادة والاستخدام الأمثل لقوى الطبيعة في التقدم والازدهار.

(وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ) (ابراهيم: من الآية٣٢).

* وفي مجال الاستفادة من الشمس تأتي أيضًا كلمة لكم في إشارة لبقة ذكية إلى أن الشمس يمكن أن تفيد إفادة هائلة كمصدر دائم ومستمر للطاقة في تحريك المصانع وإدارة الآلات.

(وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ) (ابراهيم:٣٣).

غير أن ذلك كله يحتاج إلى وقت للتفكير فيه، كما يحتاج إلى استبحار في العلم وتعمق في المعرفة حتى تتم عملية الاستفادة الكاملة والاستخدام الأمثل، ومن هنا تأتي الإشارة القرآنية إلى أهمية الزمن كعنصر فعال ومؤثر في الاستثمار الحضاري، وأن على الإنسان كمرتكز أساسي في أي حضارة أن يحرص على احترام الوقت، وألا يجازف بتضييعه فيما لا يفيد، وألا يبدده فيما لا ينفع، وإلا ضاعت عليه فرص النهضة وتاهت منه آمال الانبعاث، ومن هنا كانت اللفتة القرآنية المبهرة إلى تسخير الليل والنهار كرمزين لضرورة استثمار عنصر الزمن في بناء الأمم المتفوقة وتأسيس الحضارات الزاهرة، بالإضافة إلى كل العناصر الأخرى التي يحتاجها الإنسان في عمليات البناء والتشييد والإقلاع الحضاري.

(وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ) (ابراهيم: ٣٤).

المكون المعرفي ودوره في البناء الحضاري:

وبمناسبة الإشارة إلى استثمار الطاقات والقدرات يوجهنا القرآن الكريم إلى أن التفــكر والتعــقل والتذكــر: وهي معالم ثلاثة تشكل الأساس السليم لكل بنية حضارية علمية، لا يجوز نسيانها أو التغافل عنها، خاصة عند الحديث عن الخروج من دائرة العجز والتخلف والتبعية، والأمل في بعث حضاري إنساني، يسهم فيه القلب والعقل بطهارة الروح من العبودية لغير الله، وطهارة الفكر من خرافة الإلحاد والشرك، وشتى أنواع الوثنيات السياسية والفكرية والاقتصادية التي تستخدم منجزات العلم في

تدمير الحياة والمجتمعات، بسطاً للنفوذ، ومدًّا للسيطرة والاحتكارات، هنا تجدر الإشارة إلى طبيعة النصوص القرآنية في إيقاظ الهمة، وشحذ الإرادة، وبعث القوة، وتوجيه كل الملكات نحو الفعل الحضاري، بداية بالحضّ على التفكير، ومداومة التأمل والنظر المستمر في الظواهر المحيطة بالإنسان، ووصولاً به إلى أرقى حالات النضوج الفكري والروحي، مستخدمة في ذلك كل وسائل التأثير، بحركة الكلمة، وإيقاع اللفظ بصريح العبارة حينًا والرمز والإشارة حينًا آخر، ولنتأمل هذا النص كنموذج ومثال:

(هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ، يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ، وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ، وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ، وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْماً طَرِيّاً وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ، وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَاراً وَسُبُلاً لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ، وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ، أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لا يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ، وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ)

(النحل: ١٠-١٨).

البناء الفكري للمعالم الحضارية:

إن هذا النص وما يحتويه من تأثير في الحس والمشاعر، والعقل والتفكير، وما يتضمنه من حركة تجوب بالإنسان كل أرجاء الوجود برًّا وبحرًا، وسماءً وأرضًا، وتنتقل به بين جنبات الكون وتلفت نظره إلى مفردات الطبيعة، وتختم كل دورة أو كل جولة بمعلم من معالم البناء العقلي والحضاري.

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) (النحل: من الآية١١).

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) (الرعد: من الآية٤).

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ) (النحل: من الآية١٣).

التفكر بالنظر في الظاهرة، والتأمل في أسبابها، وفي الآثار التي تتولد عنها، وفي جمع كل المعلومات حولها والتأكد منها بمحاولة الاختبار والتجريب.

والتعقل يتم بعد فهم الظاهرة وإدراك جزئياتها، ومعرفة القوانين والسنن التي تحكمها وتوجه حركتها وتحدد أبعادها واتجاهاتها وآثارها.

والتذكر باستدعاء الذاكرة للمعلومة أو المعلومات الخاصة بكل ظاهرة، وتطبيق القوانين الملائمة لها، والاستفادة منها بعد أن يكون قد تم تخزين ذلك كله بشكل منظم وصحيح.

وبعد كل ذلك يتساءل القرآن في ثقة: (أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لا يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ) (النحل:١٧).

أفلا تذكرون كل ما في هذا الكون من دقة وإبداع وروعة؟

فمن خلقه إذًا؟ ومن دبَّر أمره وقام على رعايته من أصغر ذرة إلى أكبر المجرات؟

عمارة الدنيا والسؤال الحرج:

لا ينس هذا المنهج في زحمة الدعوة إلى البناء والتقدم وتوظيف القدرات والطاقات أن يحمي هذا البناء وأن يحفظ هذا التقدم ويسيجه بسياج من الأخلاق والمسؤولية التي تشمل كل القدرات والملكات بحيث تستغرق الحركة، والزمن، والمال، والقدرة على التغيير، وإمكانات العقل المتخصص. فهو منهج يوظف عنصر الزمن ممثلا في العمر.

ويوظف طاقة التغيير والقدرة على العطاء والبذل ممثلة في الشباب.

ويوظف عنصر المادة ممثلاً في المال من حيث الاكتساب والإنفاق.

ويوظف الطاقات العقلية والفكرية لخدمة المجتمع وترقية الحياة ممثلة في العلم.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع:

١. عن عمره فيما أفناه.
٢. وعن علمه ما فعل به.
٣. وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه.
٤. وَعَنْ جِسْمِهِ فيما أَبْلاه) (٣١).

---

٣١ سنن الدارمي، كتاب المقدمة، حديث رقم ٥٣٦

أي حماية للحياة أرقى وأعز من هذه الحماية؟ وأي ضمان لطهارة السلوك أشرف من هذه الدعوة؟ وأي أمان لتوظيف القدرات والملكات ونظافة النوايا من الداخل أقدس من هذا الضبط الإرادي والذي تمتد المسؤولية فيه بالسؤال عن ذلك كله حتى يوم الحساب.
وكم يبلغ حجم الروعة والجمال بحماية حاضر الدنيا ومستقبلها في تلك المبادئ التي احتواها هذا الدين وتضمنها منهجه قرآنا وسنة حين يدعو أتباعه والمؤمنين به إلى الخروج من مأزق التخلف المزري والتبعية الممقوتة والعجز المذل، ولا يتم ذلك إلا بمعرفة سنن الله في الكون وسنن الله في الحياة والمجتمعات والأمم والشعوب، والفطرة الإنسانية.
وهذه كلها بإجمال مطالب يفرضها ديننا، وواجبات يدعونا إليها القرآن والسنة كي نبني حضارة الأخلاق والقيم.

والملاحِظ لنصوص القرآن الكريم والدارس لها والمتأمل فيها سيجد ارتباطًا وثيقًا بين القرآن الكريم باعتباره الوعاء للمكون العقدي والمعرفي في الحضارة الإسلامية، وبين الكون الذي نعيش فيه، واعتبر الإسلام أن أهم المصادر في التكوين العقدي إنما هو القرآن والكون، فكلاهما يحيل إلى الآخر في الدلالة على الله تعالى والتعريف به. والحديث عن أهم مصدرين للمعرفة الدينية والإنسانية يدعونا إلى التعرف على العلاقة بينهما، وكيف توثقت؟ وما ضوابطها؟ وما هي آثارها ونتائجها؟.

وقبل الحديث عن ذلك كله لابد من الإشارة هنا إلى أن هذا الربط الوثيق بين مصدري المعرفة تم ليس في إطار حضاري فقط، وإنما في إطار تعبدي وإيماني، ومن ثم كان الأساس الذي لا يغيب عن الذهن في تلك العلاقة هو الارتفاق والتسخير، وليس الصراع أو التناقض.

ولقد بلغ من عظمة هذا الكون في منظور الإسلام أن الله تعالى جعل التأمل في عناصره ومفرداته والتعرف على خصائصه وقوانينه يكوِّن الإيمان.. والسعي والعمل والتخطيط والإبداع فيه يكوِّن الدنيا، وكلاهما وجهان لعملة واحدة، هي دين الله الخاتم الذي جاء ليقيم الدنيا بالدين، ويصلح الحياة بالوحي، ويطهر سلوك البشر بطاعتهم لربهم وامتثالهم لأمره ونهيه. ومن عبارات الإمام الغزالي ذات الدلالة في هذا المقام قوله:

"إن نظام الدين لا يحصل إلا بنظام الدنيا، فنظام الدين بالمعرفة والعبادة لا يتوصل إليها إلا بصحة البدن وبقاء الحياة وسلامة قدر الحاجات من الكسوة والأقوات والأمن فلا ينتظم الدين إلا بتحقيق هذه المهمات الضرورية "(٣٢).

ويؤكدالعلامة الجليل سعيد النورسي هذا المعنى فيقول: "أما أسس مدنية القرآن الكريم فهي إيجابية تدور سعادتها على خمسة أسس إيجابية:

- نقطة استنادها إلى الحق بدل القوة، ومن شأن الحق دائما العدالة والتوازن ومن هنا ينشأ السلام ويزول الشقاء.
- وهدفها الفضيلة بدل المنفعة، وشأن الفضيلة المحبة والتقارب، ومن هنا تنشأ السعادة وتزول العداوة.
- دستورها في الحياة التعاون بدل الخصام والقتال، وشأن هذا الدستور الاتحاد والتساند، اللذان تحيا بهما الجماعات.
- وخدمتها للمجتمع بالهدى بدل الأهواء والنوازع وشأن الهدى الارتقاء بالإنسان ورفاهه إلى ما يليق به مع تنوير الروح ومدها بما يلزم.
- رابطتها بين المجموعات البشرية رابطة الدين والانتساب الوطني وعلاقة الصنف والمهنة وقوة الإيمان، وشأن هذه الرابطة اخوة خالصة وطرد العنصرية والقومية السلبية.

وبهذه المدنية يعم السلام الشامل إذ هو في موقف الدفاع ضد أي عدوان خارجي"(٣٣).

ولذلك فإن القرآن قد طالب الإنسان أن يبني علاقته بالكون على أساس من النظر المتأمل المدرك الذي يجوب آفاق السماوات والأرض ولا يتوقف عند ظاهرة بعينها فتحجبه عن رؤية ما عداها.

---

٣٢ الاقتصاد في الاعتقاد، للإمام الغزالي، ص١٣٥، طبعة القاهرة مطبعة صبيح، بدون تاريخ طبع.

٣٣ الكلمات للعلامة بديع الزمان سعيد النورسي، تحقيق: إحسان قاسم الصالحي، دار سوزلر للنشر، الطبعة الأولى، ١٩٩٢، ص ٨٥٦.

مصادر الإيمان في المكون المعرفي للحضارة الإسلامية:

الملاحظ لنصوص القرآن الكريم والدارس لها والمتأمل فيها سيجد ارتباطًا وثيقًا بين القرآن الكريم باعتباره الوعاء للمكون المعرفي في الحضارة الإسلامية وبين الكون الذي نعيش فيه، واعتبر الإسلام أن أهم المصادر في تكوين العقيدة الصحيحة إنما هو القرآن والكون معا، فكلاهما يحيل إلى الآخر في الدلالة على الله عز وجل والتعريف به. والحديث عن أهم مصدرين للمعرفة الدينية والإنسانية يدعونا إلى التعرف على العلاقة بينهما، وكيف توثقت؟ وما ضوابطها؟ وما هي آثارها ونتائجها؟.

وقبل الحديث عن ذلك كله لابد من الإشارة هنا إلى أن هذا الربط الوثيق بين مصدري المعرفة تم ليس في إطار حضاري فقط، وإنما في إطار تعبدي وإيماني، ومن ثم كان الأساس -الذي لا يغيب عن الذهن في تلك العلاقة- هو الارتفاق والتسخير، وليس الصراع أو التناقض.

ولقد بلغ من عظمة هذا الكون في منظور الإسلام أن الله تعالى جعل التأمل في عناصره ومفرداته والتعرف على خصائصه وقوانينه يكوّن الإيمان، والسعي والعمل والتخطيط والإبداع فيه يكوّن الدنيا، وكلاهما وجهان لعملة واحدة هي دين الله الخاتم الذي جاء ليقيم الدنيا بالدين، ويصلح الحياة بالوحي، ويطهر سلوك البشر بطاعتهم لربهم وامتثالهم لأمره ونهيه، ومن عبارات الإمام الغزالي ذات الدلالة في هذا المقام قوله: "إن نظام الدين لا يحصل إلا بنظام الدنيا، فنظام الدين بالمعرفة، والعبادة لا يتوصل إليها إلا بصحة البدن وبقاء الحياة وسلامة قدر الحاجات من الكسوة والأقوات والأمن فلا ينتظم الدين إلا بتحقيق هذه المهمات الضروية " (٣٤).

ولذلك فإن القرآن الكريم قد طالب الإنسان أن يبني علاقته بالكون على أساس من النظر المتأمل المدرك الذي يجوب آفاق السماوات والأرض ولا يتوقف عند ظاهرة بعينها فتحجبه عن رؤية ما عداها.

---

٣٤ الاقتصاد في الاعتقاد، للإمام الغزالي، ص ١٣٥ (مرجع سابق).

العروة الوثقى بين الإيمان والعقل:

إذًا فهناك ارتباط وثيق جدا بين بناء الإيمان الصحيح وبين نظرة العقل واستيعابه للقوانين والسنن التي تحكم هذا الكون، وتعرفه على مفردات هذا الوجود أرضًا وسماءً، ونباتًا وجمادًا، وحيوانًا وبشرًا، وغير ذلك..

ونصوص القرآن هنا تعطيك صورة لروعة الرباط المقدس بين العقل والنقل تواجهك في صدر سورة يوسف كسمة من سمات الكتاب المبين الذي لا ريب فيه:
(الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ)(يوسف:١-٢).

العقل شريك النص في معرفة الحقائق:

إذا كانت هنالك فئة تحاول جاهدة أن تضع العقل في مقابل النص، وتسعى لتكريس هذا الفهم بالمغالطة والتدليس، فإننا نتوجس من هؤلاء ونتوسم فيهم سوء الفهم أو سوء النية أو هما معاً: سوء الفهم وسوء النية، ذلك لأن النص ما كان أبدًا ولم يكن يوماً مقابلاً للعقل؛ إذ إن المقابل للعقل هو الجنون، والمجنون لا تكليف عليه .يقول الأستاذ النورسي:

"لا قيمة لبصر دون بصيرة فإن لم تكن سويداء القلب في فكرة بيضاء ناصعة فحصيلة الدماغ لا تكون علماً ولا بصيرة فلا عقل دون قلب"(٣٥).

من هنا ركز المكون المعرفي لدينا على مكانة أهل العلم في تمايز الناس وتقديرهم، فرفعهم إلى مستوى مرموق في التقدير والتبجيل والتوقير، حتى جعلهم في صحبة الله تعالى والملائكة، في الشهادة له سبحانه بالوحدانية، كما ربط بين المعرفة والتطبيق من ناحية وبين الغايات التي يسعى العالِم بعلمه لتحقيقها من ناحية أخرى، قال تعالى: (قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ) (الزمر: من الآية٩)، وقال المولى: (يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ) (المجادلة: من الآية١١)، وقال سبحانه: (شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِماً بِالْقِسْطِ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) (آل عمران:١٨). ومعلوم أن أولي العلم هنا ليسوا بالضرورة أن يكونوا علماء الشريعة، أو أهل العلم الديني فقط، وإنما هم أهل العلم في كل فن

---

٣٥ الكلمات، للعلامة الشيخ سعيد النورسي (مرجع سابق) ص ٨٤٨ .

وتخصص إذا صدقت نواياهم، وارتبطت غاياتهم وتوجهاتهم بالله تعالى، وأقـــدموا علـــى العلم فهمًا وتحليلاً واستنباطًا

باســـم الله أولاً.

ورفعًا لرايته ثانيًا.

وخدمةً لعباده ثالثًا.

وتعميرًا للأرض وترقيةً للحياة استجابة لأمره رابعًا (٣٦).

لذلك لا يكفي في ميزان الإسلام أن يكون لدى العالم عقل موسوعي مجرد، لكنه مقطوع الصلة بمن أبدع السماوات والأرض، فقلبه من الإيمان فارغ، ومشاعره خالية من الارتباط بالله، حينئذ يتحول هذا العالِم في أي تخصص كان إلى مجرد –شريط كاسيت أو قرص مدمج (C.D.) على أكثر تقدير، وإنما العلم المعتبر في الإسلام هو العلم المرتبط بغاية، فإما أن يهدي صاحبه إلى هدى أو يرده عن ردى، بصرف النظر عن نوع العلم وتخصص العالِم، وذلك منحى جديد في توظيف القدرات والملكات ينفرد به الإسلام ويمتاز، قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): (مـــا اكتسب مكتسب مثل فضل علم، يهدي صاحبه إلى هدى، أو يرده عن ردى، ولا استقام دينه حتى يستقيم عقله)(٣٧).

وجدير بالملاحظة هنا الربط بين استقامة الدين واستقامة العقل، فكأن العقل شريك النص في التعرف على الحقيقة والوصول إلى المقاصد والغايات، ومن هنا كان العقل مناط التكليف، ومن لا عقل له فلا تكليف عليه، وهذا في الواقع إعلاء رائع لدور العقل ومكانته في الدين الخاتم، وهذه الميزة ليست حكرًا على جنس معين أو دم أو لون، وإنما هي دائرة مشرعة الأبواب، مفتوحة النوافذ لجميع الخلق بصرف النظر عن اللون أو الجنس أو العرق أو المستوى المادي في الثراء والفقر، وهذا هو المعنى الجميل الذي أشار

---

٣٦ انظر كتابنا: من أنت، نشر دار الشروق، القاهرة، ط١، ١٩٩٩، ص ٦.

٣٧ أخرجه الطبراني في المعاجم الثلاثة، انظر: فيض القدير شرح الجامع الصغير، دار الفكر، جـ ٥، ص ٢٤.

إليه الحديث الشريف الذي يمثل قفزة نوعية في عالم القيم عند تقويم الرجال، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال، قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): (إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم)(٣٨).

ففي ميزان الإسلام لا تدخل الأعراض الزائلة، ولا هيئات الناس في تقدير ملكاتهم، وإنما المعوّل عليه قيم متاحة كما أشرنا للبشر جميعا(٣٩).

ضوابط العلاقة بين الإنسان والكون: رؤية عامة

وللعقل أن يتساءل بعد معرفة العلاقة الحميمة بين الكون والقرآن عن الضوابط التي تحدد هذه العلاقة أولاً، ثم عن الآثار والنتائج التي تترتب عليها ثانيًا؟.

يجيبنا المكون المعرفي لأساس حضارتنا بتحديد شديد لهذه الضوابط إجمالاً وتفصيلاً بأن العلاقة بين الإنسان والكون ليست سائمة، وإنما هي علاقة مضبوطة بمجموعة من الأطر، في مقدمتها تحقيق السلام للإنسان والكون معًا كغاية من غايات الوجود الإنساني والكوني. ولنبدأ برؤية عامة لهذة الضوابط:

أولاً: التعامل من منطلق الإحسان:

أن يتعامل مع الكون من منطلق الإحسان، لا من منطلق الصراع والإحسان في مفردات الشريعة فريضة كتبها الله تعالى على كل شيء.

ثانيًا: الكف عن فعل الفساد:

الإنسان في علاقته بالكون مطالب أن يكف عن فعل الفساد الذي يخل بالتوازن والأحجام والكتل والأوزان والأدوار والنسب والنتائج والآثار، وهذا ما تعانيه البشرية اليوم من أمراض وأعراض.

ثالثًا: التعرف على سنن الله تعالى في الكون:

إن المسلم مطالب أن يتعرف على سنن الله في الكون وأن يتعرف على سننه في الخلق، كما يتعرف على الأمر التكليفي.

---

٣٨ مختصر صحيح مسلم للحافظ المنذري، تحقيق: الألباني، نشر المكتب الإسلامي، بيروت، ١٩٧٣، ط٢، ص ٤٧٣، حديث رقم ١٧٧٦.

٣٩ انظر كتابنا: دعوة إلى التفكير، أبو ظبي للطباعة والنشر، ١٩٩٥، ط٢، ص ٢٢٠.

كما أن القوانين التي تحكم مسيرة الأحياء والجمادات والأمم والحضارات لا تنفصل ولا تناقض القوانين التي تحكم الفطرة الإنسانية وكلاهما من الواجبات التي تتطلب عملية الإقلاع الحضاري معرفته والبراعة فيه.

رابعًا: معرفة القوانين التي تحكم حركة المجتمعات:

من الضروري لتكامل شخصية المسلم المعرفية من العلم والمعرفة بالوسائل الملحة التي تساعده على فهم الواقع وفهم مجرياته، ولا يتم ذلك إلا بمعرفة القوانين الاجتماعية والنفسية التي تحكم حركة المجتمعات في المد والجزر، والتقدم والتخلف، وفقدان الصلاحية، أو القدرة على الأداء، وقوانين الحركة والتدافع بين الأمم والحضارات المختلفة.

خامسًا: ضرورة الخروج من التخلف كشرط للإقلاع الحضاري:

ذلك لأن القيم التي لدينا كمسلمين والتي تعتبر بدائل موافقة للفطرة وملبية لاحتياجات الناس طولاً وعرضًا وعمقًا، لا يمكن طرحها على الناس إلا إذا خرجنا من كهف التخلف وكنا نموذجًا لتطبيقها، لتتحقق القدوة الرسالية، ولا يتم ذلك إلا باستثمار الطاقات والقدرات، والإفادة من قوى الكون المختلفة، والتعرف على ما فيه من كنوز وخيرات. هذا عن الضوابط إجمالاً.

وقبل الحديث عن آثار ونتائج تلك الضوابط لا بد من الحديث بشئ من التفصيل عن كيفية عمل تلك الضوابط وكيف هيّأها المكون المعرفي لتعمل عملها في ضبط الحركة والسلوك لتكون في الإطار الصحيح، ولتتوجه بالطاقات الهائلة التي أودعها الله عز وجل في الإنسان والكون معًا، إلى الوجهة التي أرادها الله الذي خلق الإنسان وسخر له هذا الكون العظيم. لذلك نعرض لبعض من هذه الضوابط بشئ من التفصيل يعذرنا فيه القارئ الكريم حتى تتضح أمامه التأثيرات العظيمة التي يخلقها ويكونها ويربيها في الإنسان المكون المعرفي في حضارتنا، وكما يقولون بضدها تتميز الأشياء.

قراءة في نماذج لتلك الضوابط:

الضابط الأول: التعامل من منطلق الإحسان

حين يتم التعامل مع الكون من منطلق الإحسان لا من منطلق الصراع، سيتحقق السلام الكوني الذي هو غاية؛ لأن الإحسان في مفردات الشريعة فريضة كتبها الله على كل شئ، وبالتالي فالمسلم الحقيقي يرى في الزهرة جمالاً ينبغي ألا يدمر.

ويرى في العدل جمالاً ينبغي ألا يغيب.

ويرى في الحرية جمالاً ينبغي ألا يصادر.

ويرى في الكرامة جمالاً ينبغي ألا يسلب.

ويرى في المساواة جمالاً ينبغي ألا يعكر.

ويرى في الأخوة جمالاً ينبغي ألا يزول.

ويرى في الشرف جمالاً ينبغي ألا يستباح.

ويرى في الطهر والاستقامة جمالاً ينبغي ألا يلوث.

ويرى في العمل الجاد جمالاً ينبغي ألا يبدد.

ويرى في الإبداع البشري جمالاً ينبغي ألا يهمل.

ويرى في الحق جمالاً ينبغي ألا يخترق.

ويرى في إعمار الكون وترقية الحياة جمالاً ينبغي ألا يهمل.

ويرى في الإنجاز العملي جمالاً ينبغي ألا يحقر.

ويرى في المروءة جمالاً ينبغي ألا ينسى.

ويرى في إخلاص العمل جمالاً ينبغي ألا يضيع.

ويرى في الإنسانية جمالاً ينبغي ألا يذل.

ويرى في أمن الناس وحمايتهم جمالاً ينبغي ألا يفزع.

الضابط الثاني: الإنسان في علاقته بالكون مطالب بأن يكف عن فعل الفساد الذي يخل بالتوازن في الأحجام والكتل، والأوزان والأدوار، والنسب والنتائج والآثار، وهذا ما تعانيه البشرية اليوم من أمراض وأعراض. قال تعالى:

(ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ) (الروم:٤١).

(وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ) (الشورى:٣٠).

وهذا ما تتوقاه الحضارة الإسلامية وتحمى من شروره الناس والمجتمعات، "فروْح الإسلام الدين" لم تعرف ذلك الانفصام ولا ذلك العداء بين ما هو دين وما هو دنيا، ولم تدع لسيادة قطب من هذين القطبين على حساب الآخر، بل وازنت بينهما على النحو الذي ألَف وجمع، ووفق بين هذين القطبين بنظرة شاملة وتوجه كلي، جعل انتظام الدين مشروطًا بانتظام الدنيا "كما جعل غياب الدين مخلا بسعادة الدنيا فضلاً عن إخلاله بسعادة الآخرة " "وهذا الروح الوسطى" "التأليفي" الذي تميز به الإسلام الدين، هو الذي اتسمت به الحضارة العربية الإسلامية، تلك التي لعب الإسلام الدين فيها دور "اللب"، و"الجوهر"، و"الميزان"، و"المعيار". فرأيناها تتميز عن غيرها من الحضارات بهذه الروح التي وازنت بين المتقابلات في آية ظاهرة من الظواهر، طبيعية كانت تلك الظواهر أو اجتماعية أو إنسانية، فألفت ووفقت بين أمور يحسبها كثيرون بمقاييس حضارات أخرى غير قابلة للتعايش، فضلاً عن التآخي والتوازن والتوفيق" (٤٠).

ولقد امتدت عناية المكون المعرفي في هذا الدين شأوا لم تبلغ مداه حضارة من قبل ولا من بعد، فلم تقف عند حدود الكف عن فعل الفساد، وإنما امتدت لترعى مفردات الطبيعة من الأجناس الأخرى باعتبارها أمم مثلنا، قَالَ عليه الصلاة والسلام: (عُذِّبَتِ امْرَأَةٌ فِي هرة سَجَنَتْهَا حَتَّى مَاتَتْ فَدَخَلَتْ فِيهَا النَّارَ لاَ هِيَ أَطْعَمَتْهَا وَسَقَتْهَا إِذْ هِيَ حَبَسَتْهَا وَلاَ هِيَ تَرَكَتْهَا تَأْكُلُ مِنْ خَشَاشِ الأَرْضِ) (٤١).

وقَالَ صلى الله عليه وسلم: (بَيْنَمَا رَجُلٌ يَمْشِي بِطَرِيقٍ اشْتَدَّ عَلَيْهِ الْعَطَشُ فَوَجَدَ بِئْرًا فَنَزَلَ فِيهَا فَشَرِبَ، ثُمَّ خَرَجَ فَإِذَا كَلْبٌ يَلْهَثُ يَأْكُلُ الثَّرَى مِنَ الْعَطَشِ، فَقَالَ الرَّجُلُ: لَقَدْ بَلَغَ هَذَا الْكَلْبَ مِنَ الْعَطَشِ مِثْلُ الَّذِي كَانَ بَلَغَ مِنِّي، فَنَزَلَ الْبِئْرَ فَمَلأَ

---

٤٠ الإسلام والمستقبل د. محمد عمارة ص٦٢.

٤١ صحيح مسلم كتاب الصلة والبر والأدب حديث رقم ٦٨٤١

خُفَّهُ مَاءً، ثُمَّ أَمْسَكَهُ بِفِيهِ حَتَّى رَقِيَ، فَسَقَى الْكَلْبَ، فَشَكَرَ اللَّهُ لَهُ فَغَفَرَ لَه)، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَإِنَّ لَنَا فِي هَذِهِ الْبَهَائِمِ لَأَجْرًا، فَقَالَ: (فِي كُلِّ كبد رَطْبَةٍ أَجْرٌ) (٤٢).

الضابط الثالث: أن المسلم مطالب أن يتعرف على سنن الله تعالى في الكون، وأن يتعرف على سننه في الخلق، كما يتعرف على الأمر التكليفي. ولا نغالي إذا قلنا إن الإسلام قد أعلى من قدر الإنسان، وحرره من كل القيود والضغوط والأغلال حين جعله عبدًا لله سيدًا في الكون. وهنا لابد من الإشارة إلى أن الله تعالى سخر هذا الكون تكريمًا وتعريفًا.. فرد فعل التعريف أن تؤمن، ورد فعل التكريم أن تشكر، فإذا آمنت وشكرت فقد حققت الهدف الذي من أجله خلقت..

ولذلك فإن الإسلام لم يحدد مهمة العقل في الأمر التكليفي فقط، وإنما طالبه أيضًا بفهم الأمر الكوني باعتبارهما صادران عن إرادة واحدة، ووجهان لحقيقة واحدة، ومن هنا فلا يمكن في العقل السليم الفصل بين عالمين كلاهما من صنع الله.

الأول قوله، والآخر فعله، يقول القرآن:

(إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثاً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ) (الأعراف:٥٤).

الأمر التكويني. والأمر التكليفي:

والأمر هنا قسمان: أمر تكويني، وأمر تكليفي.

فالأمر التكويني صدر عنه عالم الخلْق، وهو هذا الوجود والكون بأرضه وسمائه.

والأمر التكليفي يقصد به خطاب الله تعالى للمكلفين بالفعل أو الترك. والعقل مكلف بفهم الاثنين معًا، ومكلف بالتعرف على القوانين التي تحكم الأمرين معًا، ومكلف بمعرفة السنن والضوابط والمؤثرات والمكونات والقسمات العامة التي تشكل العالميْن معًا،

عالم الخلْق ممثلاً في هذا الجود بكل مفرداته..

---

٤٢ صحيح مسلم، باب: فضل سقي البهائم حديث رقم ٥٩٩٦

وعالم الأمر ممثلا في الوحي المعصوم قرآنا وسنة.

ونكتفي بهذا القدر من التعرض لشرح ضوابط علاقة الإنسان بالكون وكيفية عملها، لنعرض الآثار والنتائج التي تكون الثمرة العظيمة لهذه العلاقة الرائعة في ضوء المكون المعرفي لحضارتنا وكيف توظف تلك النتائج لتكون في خدمة الإنسانية والرقي بالحياة والمجتمعات والأمم.

نتائج وآثار فهم العلاقة بين الإنسان والكون:

ويمكننا أن نجمل تلك النتائج في الآتي:

النتيجة الأولى: الالتزام الأخلاقي تجاه الإنسان والكون

من المعلوم أن البعد المعرفي ينشئ لدى المسلم التزامًا أخلاقيًّا تجاه الكون وتجاه البيئة والوجود كله، وعندنا في المنهج الإسلامي إماطة الأذى شعبة من الإيمان قال (صلى الله عليه وسلم): (الإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ أَوْ بِضْعٌ وَسِتُّونَ شُعْبَةً، فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ، وَأَدْنَاهَا إماطة الأذى عَنِ الطَّرِيقِ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الإِيمَانِ) (٤٣).

النتيجة الثانية: حدوث التحولات الحضارية الكبرى

والتحولات تحدث بدفع حركة المجتمع إلى الأمام وتحقيق الإقلاع الحضاري في حياة أمتنا، ووسائل ذلك هي:

- الشعور بشهود الحق ومعناه في كل شئ في هذا الوجود. وهو شعور يرتقي بالإنسان ويحمي البيئة والطبيعة من التلوث الروحي والمادي، كما يحميه من الاغتراب النفسي والوجداني الذي تعاني منه الحياة بشرًا وجمادًا.
- تحقيق عنصر القوة التي تقوم على الحق وتعتصم به وتستند إليـــه. وهو عنصر يعمل على حماية الجوانب المادية للحياة، كما يحمي مبادئ الأمة وثوابتها ومقدراتها من الاجتياح والتعدي والتدخلات التي تخترق الإرادة والسيادة والخصوصيات، ولا تعبأ برد فعل الأمة تجاه الوقائع والأحداث.

---

٤٣ صحيح مسلم، كتاب الإيمان، حديث رقم ١٦٢.

- عبور منطقة التخلف بكل مستوياتها الروحية والخلقية والمادية، حيث يحقق الإنسان الإقلاع الخلقي والروحي حين يسمو على الشهوات ويرتفع عن التدني ويحيا متكامل الذات قلبًا وعقلاً، وجدانًا وسلوكًا.
- يتحول المسلم من مرحلة الخمول إلى مرحلة التأثير والفاعلية والشهود الحضاري، حين يدخل عصر العلم متسلحًا بسلاح الإيمان، ومزودًا بالتقوى.

النتيجة الثالثة: عودة الحياة إلى موازين الاستقامة والاعتدال

من خلال موقع المسلم واستعادته لدوره ورسالته وتأثيره تعود الحياة إلى موازين الاستقامة والاعتدال، ومن ثم يختفي ويتوارى شبح الشر المسيطر على كل شئ في الكرة الأرضية.

وحينئذ ستسمع له الدنيا، لأن نداءه سيكون من صوت الحق ومن موقع القوة المحكومة بضوابط الشريعة في الحلال والحرام، والمباح والمحظور، وما يجوز وما لا يجوز.

النتيجة الرابعة: تحقيق التوافق والانسجام في المنظومة الكونية

حين يكون المسلم عبدًا لله، سيدًا في الكون، تصبح خطواته تسبيح، ويتحول همسه إلى ذكر ومناجاة، وتتحول الحياة من حوله إلى نغم طاهر، تشترك فيه وتتعانق مفردات الطبيعة وعناصر الكون، وهي تشدو لله بالوحدانية، وتهتف له بالولاء والمجد، وتتغنى بحبه وعظمته، وتتوجه إليه بجزيل الامتنان والحمد. ومما لا ريب فيه أن ذلك كله يساعد في طمر برك الصراع، ويطفئ نيران الأحقاد، ويدفع بالناس والحياة إلى تعايش يقبل التعدد والاختلاف، ويحترم حقوق ووجهات نظر الآخرين، وإن اختلف معهم جنسًا وعقيدةً ولغةً وحضارة، ومن ثم يتحول المسلم بمقتضى التوافق والانسجام بينه وبين مفردات الطبيعة إلى (مايسترو في سيمفونية) الوجود.

ومما لا شك فيه أن مفهوم العبودية لدى المسلم يولد نوعًا من التكامل والتجانس، والتوافق والمودة بين الإنسان وبين مفردات الطبيعية، فلا صراع ولا عداء، ولا تناقض ولا تضاد، وإنما تكامل ووفاق، وانسجام ومحبة تكاد تكون محسوسة بين الكائن والكون، لأنهما عبدان لرب واحد، ومخلوقان لخالق واحد، وناشئان عن إرادة واحدة، هي إرادة

الله تعالى الذي خلق الإنسان والكون والحياة.. وكلما ارتقت علاقة المسلم بربه، ارتقت معها وتناغمت علاقته بالأشياء؛ حتى يتحول بمقتضى عقيدته وما تحدثه هذه العقيدة في النفس من سمو، لا إلى مجرد عنصر مستقبل فقط، أو نغم طاهر بين أنغام الوجود، وإنما إلى عنصر فاعل ومؤثر، بل يصبح بمثابة القائد أو (المايسترو في سيمفونية) الكون الحية النابضة بالحب والولاء والامتنان، والتي تسجد لربها وتفيض بالتسبيح والحمد له والثناء عليه.

(أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّداً لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ، وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلائِكَةُ وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ، يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ) (النحل:٤٨-٥٠).

(أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ) (النور:٤١).

(أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ) (الحج:١٨)

النتيجة الخامسة: تحقيق القدوة الرسالية الغائبة في عالم اليوم

في هذا الجو المليء بالتسبيح والمشبع بالعبودية يتحول المسلم إلى معلم شرف، تهفو له الأشياء وتستجيب لأمره الذي أضحى جزءًامن أمر الله، كما ترجع صدى نغماته أجزاء الوجود. (يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ) (سبأ:١٠).

النتيجة السادسة: تكامل العبودية بين الكائن والكون

ووسط هذا الجو المفعم بمعرفة الله تعالى والولاء له، والهتاف بمجده، ترتقي عبودية الإنسان وتتكامل من خلال معرفة الكون الدال بروعته وإبداعه على الله خالقه ومبدعه، وهذا بدوره يؤدي إلى تمكين الإنسان في هذا الوجود، حتى يصبح سيدًا فيه، تحبه الأشياء

ويحبها، وتحن إليه ويحسن إليها، وهنا تبدو العلاقة وكأنها عاقلة بين الكائن والكون.. بين الكائن في كمال عبوديته، والكون في كمال تسخيره واستجابته، فهي عبودية تقابلها سيادة تحرر الإنسان وتعزه، وتضيف إليه ولا تنتقص منه.

سلم الكمالات:

فالحرية المطلقة لا تنبع إلا عن عبودية صحيحة كاملة، ومن ثم نقول:

إن كمال الخضوع لله يولد كمال العبودية، وكمال العبودية يولد كمال الاتصال، الذي لا تستشعر طعمه إلا النفس التي عرفت وذاقت.

وكمال الاتصال يولد كمال الود: (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدّاً) (مريم:٩٦).

مع ملاحظة اسم الرحمن هنا في هذا الموضع، وما يفيضه هذا الاسم الجميل من منتهى الرحمة، وما تضفيه الرحمة من خالص الود بين العبد المحب والرحمن المحبوب، وكيف ينعكس هذا الود من تلك العلاقة ويمتد، بل ويتمدد ليشمل كل شيء حتى ذلك الذي يسميه النظر القاصر والفكر المادي بالجمادات.

وكمال الود يولد كمال الحضور الذي لا تعكره غيبة.

وكمال الحضور يولد كمال الاستجابة بين الإنسان والكون.

(وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلاً يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ) (سبأ: ١٠).

عَنْ عُمَرَ بْنِ أَبِي سَلَمَةَ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (إِنَّ أُحُدًا هَذَا يحبنا وَنُحِبُّهُ) (٤٤).

وعَنْ عَطَاءٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (إِنَّ اللَّهَ قَالَ: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذنته بِالْحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فإذا أحببته كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ

---

٤٤ مسند الإمام أحمد، المجلد الثاني، حديث رقم ٨٠٩٦

الَّتِي يَمْشِي بهَا، وَإنْ سَأَلَنِي لأعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لَأعِيذَنَّهُ، وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأنَا أكْرَهُ مَسَاءَتَهُ) (٤٥).

هل بقي للتحاف سبب؟

ويعود النص الكريم الندي ليذكرنا بهذه الحالة من حالات الشعور الحي المأنوس بشهود الحق قبل الأشياء وبعد الأشياء، ومع الأشياء وفيها، من غير حل ولا مزج، ولا اتصال ولا انفصال.

(أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ، وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلائِكَةُ وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ، يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ) (النحل:٤٨-٥٠).

فهل بقي للتحاف سبب؟

هذه هي نتائج علاقة المسلم بالكون وفق ضوابط المكون المعرفي في حضارتنا. فما هي علاقة المسلم بالآخر في ضوء نفس المكون المعرفي؟ وإلى أي جهة تتوجه تلك العلاقة؟ للصراع والصدام؟ أم للحوار والتعايش؟

وهذا هو الفصل الثالث من هذا البحث.

---

٤٥ فتح الباري بشرح صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب التواضع.

الفصل الثالث

الآخر من هو؟ وما موقفنا منه ؟

بعض المؤسسات في الغرب ومعها جماعات معينة يعرفها الباحثون والمتابعون لحركة الصراع يصبون كل غضبهم على الإسلام باعتباره في نظرهم المصدر الأساس لثقافة العنف والتطرف لدى المسلمين، ويوصف هذا الدين بأنه لا يعترف بالآخر ولا يقبل بوجوده في الحياة، وتشيع آلة الإعلام بوسائلها المختلفة باستخدام ملغوم لتكنولوجيا الإديتنج "Editing" بالصوت والصورة المختزنة التي تستدعى عند الضرورة ولو بعد عشرات السنين لتوظف في خدمة الحدث الجديد، ولتعطى الإيحاء المطلوب ترسيخه في عقلية المشاهد ونفسيته، ومن ثم فالإسلام محل هجوم مستمر من قبل الغرب دوما، وفي كل مناسبة وأحيانا بغير مناسبة.. حتى تولد لدى القوم ما يسمى بالإسلام فوبيا "Islamophobia" أي مرض الخوف من الإسلام.

فهل الإسلام كذلك ؟ أم أن التهمة ترتد إليهم بحكم شهادة التاريخ واستقراء الواقع المفجع في طول الدنيا وعرضها..؟

فتعالوا نستعرض ماذا عندنا وماذا عندهم وما هو موقف كل منا من الآخر.

في المدلول المعرفي لدينا أن الآخر ليس فقط هو المخالف لنا في العقيدة والدين، أو في الجنس أو الموطن، وإنما الآخر هو من يفعل الشر ولو كان مسلمًا، ومع أننا لسنا مطالبين أن ننسج خيوط خطابنا على منوال الآخرين، ولسنا مضطرين أن ننطلق من نفس رؤيتهم ولا من نفس منهجهم، حيث يختلف المنطلق كما تختلف الرؤية، فإننا هنا نحاول البحث عن القواسم المشتركة التي تجمع بين الحضارات؛ ليعيش أصحابها في سلام على هذه الأرض التي أضحت مثقلة بشتى صنوف الأحقاد والضغائن، الأمر الذي يستجلب كثيرًامن المآسي والكوارث الإنسانية التي يخسر فيها الجميع، بما فيهم القوي المنتصر، بصرف النظر عن حجم الخسارة ونسبتها باهظة ومكلفة، أو قليلة ورخيصة الثمن.

لا للصراع والتصادم.. نعم للحوار والتعايش:

وقضية الصراع بالنسبة لنا نحن المسلمين تحديدًا قضية كريهة جدًا في كل الظروف والأحوال؛ لأننا نؤمن أن الله تعالى خلق الأرض للناس.. كل الناس، (وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ) (الرحمن: ١٠).

ونحن أمة لها دور ورسالة، ونشكل من حيث العدد خمس سكان العالم، ومن ثم فعلى كل منا أن يحسن علاقاته –على الأقل– بأربعة آخرين ليسوا على ديننا.

وبرغم أن بعض دوائر صنع القرار في الغرب –وهم أذكياء وأغنياء وخبثاء– حاولت، ولا زالت تحاول أن تجرنا لصراع لسنا أهلاً له ولا نحن قادرين عليه، وكانت الاستجابة وردود الفعل من بعضنا غير مدركة للفجوة التكنولوجية، وللفروق في النسب والأوزان والأحجام، كما أنها أيضًا بردود فعلها لم تكن مدركة للغاية التي يريدها هؤلاء، إلا أننا يجب أن نتجنب هذا الصراع قدر الإمكان، وذلك طبعًا دون تفريط في ثوابتنا. ومن ثم كان من المهم ضرورة البحث عن مجموعة من الأبعاد.. فعلينا ونحن نبحث علاقة الحضارة الإسلامية بغيرها من الحضارات أن نقررها هنا، لأنها ستكون بمثابة الوسائل والآليات التي تعين الباحث على توسيع الرؤية، وتحمي وجدانه من التلون بأطياف التحيز في صوره المختلفة، والمتمثلة في الهوى والعنصرية، ونظرية الدم النجيب والاستعلاء بالذكاء الإنساني.

ضرورة البحث عن القواسم المشتركة وتجنب خطاب التقاطع:

وأول هذه المحاور وأوسعها هو:

١. محور المصالح المشتركة في حماية الكوكب الأرضي مما يتهدده من تغييرات مناخية نتيجة احتراق طبقة الأوزون. وهو محور يمكن أن تلتقي على أرضيته كل شعوب الكرة الأرضية.

٢. المحور الإنساني، أن البشر جميعًا يشتركون معًا في أصل الشجرة الإنسانية إذا جاز التعبير، أي في المعنى العام للإنسان بغير تحديد للون أو الجنس أو الدين.

٣. المحور الديني وهو مطلق الخضوع والانقياد لله تعالى، وإن اختلفنا بعد ذلك في

الفروع والتفاصيل، وهذا بُعدٌ جديد في توسيع الدائرة الإيمانية ينفرد به الإسلام ويمتاز، ولقد شكل هذا البعد قفزة نوعية فتحت الأبواب والنوافذ لأفق أوسع وأرحب في عالم العلاقات الإنسانية.

الموقف من الآخر في ضوء المكون المعرفي:

المحور الذي أقامه الإسلام للعلاقات مع الآخرين وبنى عليه أحكامه هو: أن الناس رغم اختلاف أجناسهم وألوانهم ولغاقم سواسية، وأن الحضارات تراكمية، فكل حضارة تأخذ من غيرها، تؤثر فيها وتتأثر بها، تأخذ من سابقتها وتعطى لاحقتها.

والعلاقة بين الإنسان والإنسان، والأمة وغيرها من الأمم، وبين الإنسان والكون كما بينا من قبل، تنشأ وتتشكل، وتنمو وتتربى في أحضان المكون المعرفي الذي يرسخ مفهوم المساواة والتسامح والشراكة.

كما أن الرؤية القرآنية المنفتحة برحمتها على العالمين، وبدينها الإسلامي الذي تضمن واحتوى أصول كل الرسالات السابقة، تتمركز في توضيح هذا الهدف في تكوين العقل المسلم.

يقول العلامة الدكتور محمد عبد الله دراز: (٤٦) "إذا أخذنا كلمة الإسلام بمعناها القرآني نجدها لا تدع مجالاً للسؤال عن العلاقة بين الإسلام وبين غيره من الأديان السماوية، فالإسلام في لغة القرآن ليس اسمًا لدين خاص، وإنما هو اسم للدين الذي هتف به كل الأنبياء، وانتسب إليه كل أتباع الأنبياء، هكذا نرى نوحًا يقول لقومه: (وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ) (يونس: من الآية٧٢)، ويعقوب يوصي أبناءه: (فَلا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ) (البقرة: من الآية١٣٢)، وأبناء يعقوب يجيبون أباهم (نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهاً وَاحِداً وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ) (البقرة: من الآية١٣٣)، وموسى يقول لقومه: (يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ) (يونس: من الآية٨٤)، والحواريون يقولون لعيسى: (آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا

---

٤٦ انظر كتاب: الدين، للعلامة الدكتور محمد عبد الله دراز، ط١٩٦٩، ص١٨٤ بتصرف.

مُسْلِمُونَ) (آل عمران: من الآية٥٢)، بل إن قومًا من أهل الكتاب حين سمعوا القرآن: (قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ) (القصص: من الآية٥٣) .

وبالجملة نرى الإسلام شعارًا عامًا يدور على ألسنة الأنبياء جميعًا وأتباعهم منذ أقدم العصور التاريخية وإلى عصر النبوة الخاتمة، ثم نرى القرآن يجمع هذه القضايا كلها في قضية واحدة، يوجهها إلى قوم محمد (صلى الله عليه وسلم) ويبين لهم فيها أنه لم يشرع لهم دينًا جديدًا، وإنما هو دين الأنبياء من قبلهم، ثم نراه بعد أن يسرد سيرة الأنبياء وأتباعهم ينظمهم في سلك واحد، ويجعل منهم جميعا أمة واحدة، لها إلــه واحد، كما لها شريعة واحـــدة: (إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ) (الأنبياء:٩٢).

ما هذا الدين المشترك الذي اسمه الإسلام والذي هو دين كل الأنبياء والمرسلين؟ إن الذي يقرأ القرآن يعرف كنه هذا الدين: "إنه هو التوجه إلى الله رب العالمين في خضوع خالص لا يشوبه شرك، وفي إيمان واثق مطمئن بكل ما جاء من عنده على أي لسان وفي أي زمان أو مكان، دون تمرد على حكمه، ودون تمييز شخصي أو طائفي أوعنصري بين كتاب وكتاب من كتبه، أو بين رسول ورسول من رسله"، هكذا يقول القرآن:

(قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ) (البقرة:١٣٦)، فهذه الآيات تؤكد وحدة المصدر الذي تلقى عنه أنبياء الله جميعًا، كما تؤكد وحدة الإرادة في الخلق والإيجاد، ومقصود تلك الإرادة من كل العقائد والتشريعات التي أمروا بها، قال تعالى: (وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ) (البينة: من الآية ٥).

وتشير إلى الروابط والغايات التي يجب أن تسود بين البشر جميعًا، قال تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ) (الحجرات:١٣).

كما تلتقي مع مبادئ الدين الحنيف في مدلوله ومعناه الأخص باعتباره الدين الخاتم، فهو الوعاء والمحتوى لكل حقائق الوحي في الرسالات السابقة التي تلقاها وبعث بها كل رسل الله السابقين لمحمد (صلى الله عليه وسلم)، ومن هنا فإن الإسلام هو المنهج الوحيد الذي يطوي على مستوى التاريخ أبعادَ الزمان، فيجمع الناس في عقد واحد ويرسي قواعد الأخوة بين أبناء البشر جميعا، ويطالب أتباعه والمؤمنين به بضرورة الإيمان بكل النبوات السابقة كشرط للإيمان بمحمد (صلى الله عليه وسلم)، يقول تعالى: (آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ)

(البقرة:٢٨٥)

كما أنه على مستوى القيم الفاعلة والمؤثرة في دفع حركة المجتمع إلى الأمام والضابطة لسلوكيات الأفراد فيه، وهي قيم ثابتة لم يطرأ عليها تغيير أو تبديل، يعتبر شرع من سبقنا شرع لنا ما لم يرد ناسخ، يقـول ربنا تعالـى: (شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ) (الشورى: من الآية١٣).

ثبات القيم في كل الرسالات:

وهنا تلتقي وتتعانق في انسجام تام ثوابت القيم في كل النبوات والرسالات السابقة مع منظومة ثوابت القيم في منهج الإسلام، فهو مصدق لما بين يديه من الكتب التي لم يطرأ عليها تبديل أو تحريف، ومهيمن عليها أيضًا، أي حارسًا أمينًا عليها. ومن قضية الحراسة ألا يكتفي الحارس بتأييد ما خلده التاريخ فيها من حق وخير، بل عليه فوق ذلك أن يحميها من الدخيل الذي عساه أن ينضاف إليها بغير حق، وأن يبرز ما تمس إليه الحاجة من الحقائق التي عساها أن تكون قد أخفيت منها، وهكذا كان من مهمة القرآن أن ينفي عنها الزوائد، وأن يتحدى من يدعي وجودها في تلك الكتـب:

(قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) (آل عمران: من الآية٩٣)، كما كان

من مهمته أن يبين ما ينبغي تبيينه مما كتموه منها: (يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ) (المائدة: من الآية١٥)، ونموذج لذلك نراه ينفي عن نبي الله عيسى وأمه ما لاكته ألسنة البعض من تهم باطلة حاولوا بها تلويث سيرتهما، فقالوا عن المسيح وأمه مقالة السوء والبهتان والزور: "يسوع الناصري موجود في لجات الجحيم بين القار والنار، وأمه مريم أتت به من العسكري باندارا سفاحًا، والكنائس النصرانية بمثابة قاذورات، وأساقفتها أشبه بالكلاب النابحة، وقتل المسيحي من الأمور المأمـــور بها.. ومن الواجـــب دينا أن يلعن ثلاث مرات رؤساء المذهب النصراني" (٤٧).

فرد القرآن تلك الفرية على أصحابها، وأنصف المسيح وأمه، واعتبره وجيها في الدنيا والآخرة ومن المقربين، وأن أمه صِدِّيقة مطهرة، اصطفاها الله على نساء العالمين، قال تعالى: (وَإِذْ قَالَتِ الْمَلائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ، يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ، ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُون، إِذْ قَالَتِ الْمَلائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهاً فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ، وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَمِنَ الصَّالِحِينَ) (آل عمران:٤١-٤٦).

هذا هو رأي الإسلام من خلال القرآن وليس من خلال وجهة نظر أخرى في مريم والمسيح.وبهذا كان القرآن هو الوعاء الذي له وحده دون سواه ميزة الإحاطة والاحتواء، قال تعالى: (وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ) (المائدة: من الآية٤٨)، فهو دين يوجب على أتباعه عدم التمييز والمفاضلة بين نبي وآخر، على اعتبار أنهم جميعا أخوة، فمنطوق الإيمان ومفهومه عندنا (لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ) (البقرة: من الآية٢٨٥).

---

٤٧ الكنـــز الموجود في قواعد التلمود، د. روهلنك، ترجمة: د. يوسف نصر الله .

إذًا فالإسلام بمعناه القرآني الذي وصفناه لا يصلح أن يكون محلاً للسؤال عن علاقة بينه وبين سائر الأديان السماوية، إذ لا يسأل عن العلاقة بين الشيء ونفسه، فها هنا وحدة لا انقسام فيها. هكذا كانت الشرائع السماوية خطوات متصاعدة ولبنات متراكمة في بنيان الدين والأخلاق وسياسة المجتمع، وكانت مهمة اللبنة الأخيرة منها أنها أكملت البنيان وملأت ما بقي فيه من فراغ، وأنه في الوقت نفسه كانت بمثابة حجر الزاوية الذي يمسك أركان البناء. وصدق الله حين وصف خاتم أنبيائه صلى الله عليه وسلم بأنـــه: (..جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ) (الصافات: من الآية٣٧).

المكون المعرفي والمساواة الإنسانية:

وكما يطوي الإسلام على مستوى التاريخ أبعاد الزمان، فهو كذلك على مستوى الجغرافيا يطوي أبعاد المكان، بل يوجه دعوة الرسول الخاتم إلى كل الناس في كل مكان، ونلاحظ هنا في رسالة الإسلام بالذات أن المكان قد تمدد واتسع، وأن الزمان كذلك قد تمدد واتسع، فليست بعثة الرسول (صلى الله عليه وسلم) قاصرة على مكان محدد، كما أن الرسالة ليست قاصرة على زمن محدد، فهي تتجاوز بتوجيهاتها عصبية اللون والجنس والأعراق والأرض، قال تعالى: (قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ) (الأعراف:١٥٨).

وقال تعالى: (إِنَّ فِي هَذَا لَبَلاغاً لِقَوْمٍ عَابِدِينَ، وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ) (الأنبياء:١٠٦-١٠٧)

رد نظرية الجنس النجيب أو الدم الزاكي:

المكون المعرفي في حضارتنا لا يعترف في تقويم[٤٨] البشر بالطبقيات الممقوتة، ويرفض أن يتميز الإنسان لمجرد أنه من جنس معين، أو أنه يملك المال فقط، فموازينه لا تعتمد لـــون البشرة أو العصبيات أو الجنـــس، كما لا تعتمد العرض الفاني في تقويم الرجال، وإنما تعتمد صلاح النفس ونظافة الضمائر، والإحسان إلى الناس كمعيار في التقويم، وكأساس في التمايز، وذلك هو المفهوم من مصطلح (التقوى) في النص الكريم: (إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ) (الحجرات: من الآية١٣).

---

٤٨ الصحيح تقويم وليس تقييم ولكن تقييم خطأ شائع، والخطأ الشائع أولى في الاستعمال من الصحيح المهجور.

كما أنه في الوقت نفسه ينصب الموازين الحقة في تقدير الناس على أساس أن البشر يتساوون جميعاً في أصل الخلقة والتكوين، فلا ميزة لدم على دم ولا لجنس على جنس ولا لعرق على عرق ولا للون على لون آخر، وإذا حدث واختلفت الشعوب والأجناس، أو اختلطت بينهم المفاهيم والتصورات، أو تضاربت المصالح والغايات –وهذا وارد جدًا– فإن القرآن كتاب الوجود والخلود يرسم لأتباعه إطارًا أخلاقيًا يتربى عليه المسلم منذ نعومة أظفاره بحيث يشب وقد علم أن المطامع والمطامح لا بد لها –على الأقل– من سقف أخلاقي لا تتعداه ولا تتحداه كي يعيش الناس في سلام وانسجام، وإذا بدت بعض التناقضات في المصالح والغايات، وتطورت أحيانًا إلى صراع محموم، فعلى كل الأطراف أن يتذكروا دومًا أنهم خلقوا ليعمروا لا ليدمروا، وليضيفوا إلى كل جميل جمالاً جديدًا في هذا الوجود، وأنهم في الوقت نفسه أبناء أب واحد وأم واحدة، فكل الناس لآدم وآدم من تراب، وبالتالي وجب عليهم أن يتعاونوا ويتراحموا ويتواصلوا، وإذا لم يفعلوا ذلك دينًا، لوجب عليهم أن يتواصلوا ويتراحموا نسبًا وصهرًا، قال تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً) (النساء:١).

ثقافة الصراع والكراهية:

وفي مقابل هذا التسامح الرحب تبرز فلسفة العداء والكراهية تجاه الإسلام وأهله وإنكار الآخر الإسلامي، بثقافته وحضارته.. ومحاولة نفيه من الوجود لم تتغير كثيرًا بين العصر القديم والعصر الحديث، كل ما هنالك أن الآليات قد تطورت، وأن حضارة القرن العشرين قد أضفت عليها من جديد وسائلها ما لا يستطيع العقل تصديقه أو حتى تصوره، واسأل إن شئت أهل كوسوفا، أو ابحث في باطن أية بقعة من أرض البوسنة والهرسك، أو اسأل إن شئت كرازاديتش، فهو لا يزال حرًا طليقًا، وإن رأيت أن المسافة بعيدة، وأن السفر شاق وطويل، فلا عليك إذا اختصرت الطريق وذهبت إلى العراق وهناك سترى في الفلوجة بل في كل مناطق العراق العجب العجاب، وارجع البصر إلى فلسطين، وهنالك ترى الخبر اليقين الذي يغنيك عن أي حديث، ويلهيك عن أية معاناة، ويمسك لسانك عن أي كلام، وربما يقصف قلمك عن كتابة أي حرف مباح.

ثقافة الحب لا ثقافة الكراهية:

لم يكن بدعًا ما قرره الإسلام حين جعل الحب شرطًا في كمال الإيمان وصحته، فقال عليه الصلاة والسلام: (وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لاَ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا، وَلاَ تُؤْمِنُوا حَتَّى تحابوا، أَلاَ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَمْرٍ إِذَا أَنْتُمْ فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ؛ أَفْشُوا السَّلاَمَ بَيْنَكُمْ) (٤٩).

كما قرر أن وسيلة المحبة إنما هي إفشاء السلام، وهذه العبارة تتسع لتشمل أمن الناس في دمائهم وأموالهم وأعراضهم، بل تتضمن أيضًا سلامة البيئة بكل مفرداقا من كل من تلوث مادي أو معنوي يخرج الأشياء عن طبيعتها ويتسبب في شيوع الفساد.

احترام شخصية المخالف:

وإذا كان هذا هو الموقف من مفردات الطبيعة ومنظومة الكون المادية فكيف بسيد هذا الوجود المكرم وهو الإنسان..؟

لذلك تضمنت شريعته السمحاء كمًّا هائلاً ورائعًا من التشريعات، هدفها وأساسها وغايتها رعاية الحق وإقامة العدل في تحديد العلاقة بين أتباع الديانات الأخرى ممن يعيشون في مجتمع المسلمين، فالأحقاد الطائفية والحروب الدينية غريبة على البيئة المسلمة، وقد تعلم المسلمون من أصل دينهم وتوجيهات نبيهم أن يعاملوا غيرهم بيسر وحسن معاشرة، ورعاية للجوار الذي وجهت إليه سماحة الإسلام فيما شرعته من قوانين وفيما وضعته من تقاليد، ذلك أن الإسلام في ميدان الحياة العامة حريص على احترام شخصية المخالف له، ومن ثم لم بفرض عليه حكمه، أو يقهره على الخضوع لشرائعه، ولم يقم بمصادرة حقوقهم أو تحويلهم بالإكراه عن عقائدهم أو المساس بأموالهم وأعراضهم ودمائهم،؛ بل ترك أهل الأديان وما يدينون، فليس من أهداف الإسلام إذًا أن يفرض نفسه على الناس فرضًا حتى يكون هو الديانة العالمية الوحيدة، فنبي الإسلام هو أول من

---

٤٩ سنن الترمذى، باب مَا جَاءَ فِي إِفْشَاءِ السَّلاَمِ، حديث رقم ٢٩٠٤ .

يعرف أن كل محاولة لفرض ديانة عالمية وحيدة هي محاولة فاشلة، بل هي مقاومة لسنة الوجود، ومعاندة لإرادة رب الوجود: (وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ) (هود:١١٨)، (وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ) (يوسف:١٠٣)، (وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ) (يونس:٩٩)، ومن هنا نشأت القاعدة الإسلامية المحكمة المبرمة في حرية العقيدة: (لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ) (البقرة: من الآية٢٥٦)، إن الإسلام يجعل الاعتقاد الصحيح ثمرة الإرادة الحرة، وبالتالي فمن لا حرية له فلا تكليف عليه، وكما أن المكره على فعل عمل ما لا يتحمل نتائجه؛ لأن إرادته استعبدتها قوة قاهرة، فكذلك المكرهون بالعنف على الدخول في دين ما، فهم لا يعتبرون متدينين به موضوعيًّا، وإن خضعوا له شكلاً.

على أن الإسلام لا يكتفي منا بهذا الموقف السلمي السلبي وهو عدم إكراه الناس على الدخول فيه، بل يتقدم بنا إلى الأمام فيرسم لنا خطوات إيجابية نكرم بها الإنسان في شخص غير المسلم، حتى ولو كان من الوثنيين الذين يدينون بديانة هي أبعد الديانات عن الإسلام، فضلا عن الديانات الأخرى التي تربطنا بها أواصر الوحي السماوي، إقرأ في سورة التوبة: (وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ) (التوبة:٦)، فأنت تراه لا يكتفي منا بأن نجيرهم ونؤويهم ونكفل لهم الأمن في جوارنا فحسب، ولا يكتفي منا بأن نرشدهم إلى الحق ونهديهم طريق الخير وكفى؛ بل يأمرنا بأن نكفل لهم الحماية والرعاية في انتقالهم حتى يصلوا إلى المكان الذي يأمنون فيه كل غائلة، ثم هل ترى أعدل وأرحم وأحرص على وحدة الأمة وتماسكها من هذه التعاليم التي لا تكتفي بأن تكفل لغير المسلمين في بلاد الإسلام حرية عقائدهم، أو عوائدهم، وحماية أشخاصهم وأموالهم وأعراضهم فقط، بل تمنحهم من الحرية والحماية، ومن العدل والرحمة قدر ما تمنحه للمسلمين من الحقوق العامة فيكون (لهم ما لنا وعليهم ما علينا) وفق القاعدة المعروفة.

عقد الذمة بين الحقيقة والتشويه المتعمد:

وقد أوجب الإسلام هذا الحق على أتباعه والمؤمنين به بموجب عقد الذمة، ولم يشأ الإسلام أن يجعله –مجرد عقد مثل كل العقود– التي يطالب الحاكم أو الوالي العام بالوفاء بما تضمنته بنوده والالتزام بما جاء فيه وانتهى الأمر، وإنما رفع من قداسة هذا العقد ليجعله عقدا ليس في ذمة الوالي أو الحاكم فحسب، وإنما جعله في ذمة الله وذمة رسوله (صلى الله عليه وسلم)؛ ليحظى بأعلى مستوى من التقدير والتوقير والوفاء، لذلك تضافرت النصوص، قرآنًا وسنةً في توكيد هذا العقد، ثم كانت ممارسات المسلمين في شتى عصورهم، تطبيقًا حيًّا وعمليًّا يُجَسِّد حالة الالتزام في أرقى درجاتها رعاية وعناية، وأعلى تجلياتها كرمًا وتسامحًا. فالله تعالى يأمر في دينه بالعدل والإحسان، ولا يجرد المسلم من العواطف سلبًا وإيجابًا (عواطف الحب أو الكره) حين يمارس هذا العدل، ولكنه يفرض عليه بذل أقصى الجهد في تحري العدالة المطلقة، فلا يجوز له أن يميل مع الهوى أو يحيف مع الشنآن، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيّاً أَوْ فَقِيراً فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً﴾ (النساء:١٣٥)، يروي أبو داود والبيهقي في السنن قول الرسول (صلى الله عليه وسلم): (من ظلم معاهدًا أو انتقصه حقًّا أو كلَّفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئًا بغير طيب نفس منه، فأنا حجيجه يوم القيامة) (٥٠)، وقال عليه الصلاة والسلام: (من آذى ذميا فقد آذاني، ومن أذاني فقد آذى الله) (٥١).

وفي مجال فردية التبعة وشخصية العقوبة وعدالة الجزاء، ذكر أبو يوسف في الخراج أن عهد النبي صلى الله عليه وسلم لأهل نجران جاء فيه: (..ولنجران وحاشيتها جوار الله وذمة محمد النبي رسول الله (صلى الله عليه وسلم) على أموالهم وملتهم وبيعهم،

---

٥٠ انظر: السنن الكبرى، البيهقي، جـ ٥، ص ٢٠٥ .

٥١ رواه الطبراني في الأوسط بإسناد حسن .

وكل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير، ولا يؤخذ منهم رجل بظلم آخر) (٥٢)، إذًا فدماؤهم وأموالهم وأعراضهم محمية بنصوص القرآن والسنة، وحمايتهم جزء من عبادة المسلم، يقول الرسول (صلى الله عليه وسلم): (من قتل معاهدا لم يرح رائحة الجنة، وأن ريحها ليوجد من مسيرة أربعين عاما) (٥٣)، فالإسلام يفرض لهم (بموجب عقد الذمة حقوقًا علينا طالما كانوا في جوارنا، وفي حمايتنا وذمتنا وذمة الله تعالى وذمة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ودين الإسلام، فمن اعتدى عليهم ولو بكلمة سوء أو غيبة، فقد ضيع ذمة الله وذمة رسوله، وذمة دين الإسلام).

قال ابن عابدين: (لأنه بعقد الذمة وجب لهم ما لنا، فإذا حرمت غيبة المسلم حرمت غيبته، بل قالوا إن ظلم الذمي أشد) (٥٤).

وتوالت النصوص على حماية حرية أهل الذمة الدينية وحرمة معابدهم، وشعائرهم وقد فصلت ذلك وثيقة عمر بن الخطاب التي أعطاها لأهل إيلياء (القدس) حيث جاء فيها: (هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان: أعطاهم أمانًا لأنفسهم وأموالهم، وكنائسهم وصلبانهم، وسائر ملتها، لا تسكن كنائسهم ولا تهدم، ولا ينتقص منها، ولا من حيزها، ولا من صليبها، ولا من شيء من أموالهم، ولا يكرهون على دينهم، ولا يضار أحد منهم، ولا يسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود) (٥٥).

وبناءً عليه فيجب على الإمام أو ولي الأمر بما له من سلطة شرعية، وما لديه من قوة عسكرية، أن يوفر لهم سبل هذه الحماية باعتبارها جزءا من واجباته الدينية بموجب عقد الإمامة بينه وبين الأمة، جاء في مطالب أولي النهى من كتب الحنابلة: "يجب على الإمام حفظ أهل الذمة ومنع من يؤذيهم، وفك أسرهم، ودفع من قصدهم بأذى إن لم

---

٥٢ انظر الخراج لأبي يوسف، ص ٧٢ – ٧٣ .

٥٣ رواه أحمد والبخاري في الجزية، كما رواه ابن ماجه والنسائي في الديات .

٥٤ انظر: رد المختار على الدر المختار شرح تنوير الأبصار، لخاتمة المحققين محمد أمين الشهير بـــابن عابـــدين، تحقيق وتعليق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود – الشيخ علي محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط ١ ،١٩٩٤، جـــ ١، ص ٢٨٢ .

٥٥ تاريخ الطبري، دار المعارف بمصر، جـــ ٣، ص ٦٠٩ .

يكونوا بدار حرب، بل كانوا بدارنا، ولو كانوا منفردين ببلد، فقد جرت عليهم أحكام الإسلام، وتأبد عقدهم فلزمه ذلك كما يلزمه للمسلمين" (٥٦).

وذكر الإمام القرافي –وهو من أئمة المالكية– في كتابه الفروق، نقلا عن الإمام ابن حزم الظاهري في كتابه مراتب الإجماع ما نصه:

"أن من كان في الذمة، وجاء أهل الحرب إلى بلادنا يقصدونه وجب علينا أن نخرج لقتالهم بالكراع والسلاح، ونموت دون ذلك صونا لمن هو في ذمة الله تعالى وذمة رسوله صلى الله عليه وسلم، فإن تسليمه دون ذلك إهمال لعقد الذمة" (٥٧).

وقد علق الإمام القرافي على هذا الكلام بقوله: "فعقد يؤدي إلى إتلاف النفوس والأموال صونا لمقتضاه عن الضياع لعظيم"(٥٨).

فهل عرفت الدنيا أو وعت ذاكرة التاريخ مثل هذا الأفق الرحيب في التسامح ورعاية الأقليات غير المسلمة في مجتمع المسلمين؟!

وقد يقول قائل: هذا نموذج نظري لسمو المبدأ ورقي الفكرة، لكن المهم هو التطبيق العملي، ونجيب بسرعة بإحالة السائل إلى أحداث التاريخ التي تضمنت الكثير من المواقف العملية والتطبيقية للصحابة وكبار الأئمة، كما نحيله إلى اعترافات الكثيرين من كُتَّاب الغرب ومفكريهم، بل وكبار رهبانهم والاعتراف -كما يقولون- هو سيد الأدلة، ولضيق المقام نشير هنا إلى موقف يذكره التاريخ بالجلال والفَخَار، ألا وهو موقف شيخ الإسلام "ابن تيمية" حينما سيطر التتار على الشام وذهب الإمام ليكلم قائد التتار (قطلوشاه) في إطلاق سراح الأسرى فسمح القائدُ للشيخ في إطلاق سراح الأسرى المسلمين فقط، وأبى أن يسمح له بإطلاق سراح أهل الذمة، فقال الشيخُ العالمُ: "لا نرضى إلا بافتكاك جميع الأسرى من اليهود والنصارى فهم أهل ذمتنا، ولا ندع أسيرًا لا من أهل الذمة ولا من أهل الملة، فلما رأى إصراره وتشدده في أمر أهل الذمة من اليهود والنصارى أطلقهم له"(٥٩).

---

٥٦ الكراع اسم يجمع الخيل والسلاح، انظر المعجم الوسيط ،ص٧٨٣ ،ج/٢

٥٧ الفروق، الإمام القرافي، جـ ٣، ص ١٤ .

٥٨ المصدر السابق جـ ٣، ص ١٤ .

٥٩ نقلا عن كتاب: غير المسلمين في المجتمع الإسلامي ص١٠ ط /١ ١٩٧٧ مكتبة وهبة د/ يوسف القرضاوي.

المنصفون وشهادة التاريخ:

ونكتفي بهذا الموقف لننتقل إلى شهادة المنصفين من كتاب ومفكري الغرب؛ ليعلم القارئ أن الحقائق لا تذهب مع الزبد الرابي وسط السيل المندفع، ولا يزيلها جليد الباطل أبدا مهما غطاها بطبقات الصقيع، فسيأتي يوم تسطع فيه الشمس، وتذيب جليد الباطل بأنوارها وحرارتها، وستجرف أمواج المحيط ما تبقى من رمال الباطل على شطآن الحقيقة، فيراها الجميع رأي العين، ويسمعون نداءها، ويتردد في فطرتهم وقلوبهم رجع صداها .

أرسل البطريرك النسطوري يشوع باف الثالث إلى المطران سمعان رئيس أساقفة فارس رسالة جاء فيها: "إن العرب الذين منحهم الله سلطان الدنيا، يشاهدون ما أنتم عليه، وهم بينكم كما تعلمون ذلك حق العلم، ومع ذلك فهم لا يحاربون العقيدة المسيحية، بل على العكس، يعطفون على ديننا ويكرمون قسسنا وقديسي الرب ويجودون على الكنائس والأديار"(٦٠).

ويعلل سير توماس أرنولد سبب إسلام الجماعات المسيحية التي كانت تحت حكم الدولة البيزنطية بقوله: "إنها وجدت أنها تنعم بحالة من التسامح لم تعرفها طوال قرون كثيرة بسبب ما شاع بينهم من الآراء اليعقوبية والنسطورية، فقد سمح الإسلام لهم أن يؤدوا شعائر دينهم دون أن يتعرض لهم أحد، فقد وضعت قيود تحول دون الاحتكاك بين الديانات المتنافسة، وتمنع إثارة التعصب بين فرقة وأخرى، وهذا من قواعد الحرية والمحافظة عليها"، وحتى المتعصبين من النصارى لم تخل أحاديثهم من لحظة صدق تفلتت فيها الحقيقة من عقال التعصب، فخرجت في فلتات اللسان ليتحقق القول المأثور- صدقك وهو كذوب- رأينا ذلك جليا في شهادة الدكتور فيليب حتى المؤرخ المسيحي المعاصر، والذي لم يدخر وسعا في شتم النبي محمد صلى الله عليه وسلم! ولم يكف يوما عن محاولة الغمز واللمز، والنيل من رسول الإسلام (صلى الله عليه وسلم)! لكن فطرته

---

٦٠ فتوح البلدان، للبلاذري ص١٤٣ .

غلبت عليه في لحظة سكون العقل المكابر فقال: "كان أهل الذمة في ظل الدولة الإسلامية يتمتعون بقدر كبير من التسامح الديني، وكانوا يخضعون حتى في الأمور المدنية، وكافة الإجراءات القانونية إلى رؤسائهم الدينيين").

وينقل أرنولد من كتاب ميخائيل الأكبر بطريرك أنطاكية اليعقوبي، الذي عاش في النصف الثاني من القرن الثاني عشر بعد سرد اضطهادات الرومان المسيحيين لهم يقول:

(إنه يرى أصبع الله في فتوح العرب، وأن الله لما رأى شرور الروم الذين لجأوا إلى القوة، فنهبوا كنائسنا وسلبوا ديارنا وأديرتنا في كافة ممتلكاتهم، وأنزلوا بنا العقاب في غير رحمة ولا شفقة أرسل أبناء إسماعيل من بلاد الجنوب ليخلصنا على أيدهم من قبضة الروم.. ولما أسلمت المدن للعرب، خصص هؤلاء لكل طائفة الكنائس التي وجدت في حوزتها، ولم يكن كسبا هَيِّنًا أن نتخلص من قسوة الروم وأذاهم وحنقهم وتحمسهم العنيف ضدنا، وأن نجد أنفسنا في أمن وسلام)(٦١).

هكذا تتحدد علاقة المسلم تجاه الآخرين –الإنسان والبيئة وعناصر الكون ومفردات الوجود أرضا وسماء– فالمسلم ينطلق في مشاعره مسالما، يبادر الآخرين بالحب لا بالكره، وبالعدل لا بالظلم، وبالسلام لا بالصراع؛ لأن السلام في عقيدته شعيرة، وفي حسه شعور، وفي حياته شعار.. ودينه لا يمنح شرف الانتساب إليه إلا لمن سلم الناس من لسانه ويده، كما أنه يجعل من تحقيق الأمن وإشاعة الطمأنينة غاية من غاياته، يتربّى المسلمون عليها، ويتعبدون ربهم بها، ويتبادلونها تحية فيما بينهم ويحيون دعاة لها، وحماة لمبادئها من بطش الآخرين وعدوان الذين يقتاتون دماء الشعوب واستلاب حرياتهم، ويعيشون على القضم والهضم.

تراكمية المعرفة:

وإذا كان الإسلام قد نَظَرَ إلى العرب على أنهم عقل الإسلام ولسانه، إلا أنه قد رفض أن تكون الرسالة قاصرة على الجنس العربي وحده، ومن ثم رفض أيضا أن يكون الذكاء

---

٦١ نقلا من كتاب: روح الدين الإسلامي لعفيف طبارة ص٢٨٨ بتصرف، الطبعة ٢٧، دار العلم للملايين بيروت لبنان ١٩٨٨.

الإنساني قاصرا على جنس مخصوص، ورأى أن هناك عطاء لكل جيل، وأن التراكمات الثقافية والفكرية وحرية العقل لها في التكوين الحضاري إسهام كبير، وتشارك فيها الأجيال والشعوب والأمم، لذلك اعتمد الإسلام التجارب الإنسانية ضمن روافد التكوين الحضاري للأمم والشعوب، ونظر إليها كرصيد ملزم ومؤسس في بناء الحضارات، كما اعتبر الإضافة العلمية حقا لكل جيل، وهي تدخل ضمن الروافد المهمة التي لا يجوز أن يحرم منها المجتمع لأي سبب كان، وعلم أتباعه والمؤمنين به أن يبحثوا عن الحكمة حيثما كانت، وألا ينغلقوا على أنفسهم أو يتمركزوا حول ذواهم فقط، وقبل ذلك وبعده اعترف برسالات السماء كإطار مرجعي لحماية قيم الحق والرشد في الأمم والشعوب، بالإضافة إلى قبوله لفكرة الإبداع الإنساني في إثراء الحضارات.

ضوابط الأخلاق وليس ضوابط المصلحة:

وتأسيسا على هذه القاعدة من الوعي بالتفاعلات المهمة في كل أقطار الأرض، فقد توجه خطاب الوحي المعصوم في المكون المعرف والعقدي لدينا ليقيم العلاقات بين الدولة الإسلامية وغيرها من الدول، على أساس من الكرامة وعزة الإنسان، وهي علاقات تتفاعل مع الآخرين أخذا وعطاء، وتأثيرا وتأثرا، تدعم جوانب الخير وتقيم العدالة، وتنضبط بضوابط الأخلاق لا بضوابط المصلحة المادية، فالمسلم في حياته يعتز بدينه، ويفاخر بالانتماء لأمة الإسلام، ولكن هذا الاعتزاز وهذا التفاخر لا ينطلقان من عصبية عمياء، ولكنهما محكومان بضوابط العدل والإنصاف في التعامل مع الآخرين، ولو كانوا مختلفين معنا في العقيدة والدين. فكتاب المنهج كإطار أخلاقي وكمصدر مرجعي لتوجيهات المسلم وتصوراته وسلوكياته يرفض الظلم ويأباه في كل صوره، مع الشقيق المسلم أو مع العدو اللدود، كما يرفض المحاباة على حساب الحق لقريب أو صديق، أو حسيب أو نسيب، أو حتى مع الوالدين والأقربين.

قال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيّاً أَوْ فَقِيراً فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً) (النساء ١٣٥).

الحق فوق القوة:

وهكذا يتحدد في المنهج بحزم وصرامة أن الحق فوق القوة، وأن العدل فوق الخصومة، وأن إنسانية الإنسان فوق كل اعتبار، كما يتحدد من خلال المنهج أن حماية البيئة وكل مفردات الطبيعة ومنظومة الكون الكبير، وتأمين مبدأ السلام للجميع هو الأصل الأصيل، انطلاقا من القاعدة القرآنية المعروفة: (وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا) (الأعراف: من الآية ٥٦)، وأن هذا السلام بموجب هذه القاعدة حق مكفول في منهج الإسلام، لا يجوز العدوان عليه أو تهديده في أية صورة من الصور، ولو بمجرد حبس حيوان أعجم، وقصة المرأة التي دخلت النار في هرة حبستها، قصة معروفة للجميع، فهل يوصف هذا الدين بعد ذلك بأنه مصدر للإرهاب والعنف؟ وأنه لا يعترف بالآخر ولا يقبل بوجوده في الحياة كما تشيع آلة الإعلام في الغرب دوما، وفي كل مناسبة وأحيانا بغير مناسبة..؟ أم أن التهمة ترتد إليهم بحكم شهادة التاريخ واستقراء الواقع المفجع في طول الدنيا وعرضها..؟ (٦٢).

وبعد: فهذا هو مصدر المكون المعرفي لدينا وموقفه من الآخر.

فماذا عندهم ؟ وما الذي يحمله المكون المعرفي لديهم تجاه الآخر ؟ وهل له تأثير في التوجيه الحضارى نحو الصراع؟

قد يقول قائل إن القوم ينطلقون من نظريات حديثة قال بها فلاسفتهم ومفكروهم من أمثال فوكوياما ونظريته عن نهاية التاريخ، وكذلك صموئيل هنتنجتون ونظريته عن صراع الحضارات ولا ينطلقون من دين وعقيدة، وهذه فرضية يكذبها الواقع، فالكاتب والمفكر الإنجليزى جوليان هاكسلى يقول " إن الغرب ينطلق في ثقافته من عقيدة تختلط فيها الحقيقة بالأسطورة، ولا زال الوجدان الأوربي محكوم بالأسطورة الرومانية القديمة أسطورة بريميسيوس سارق النار المقدسة"، وهى أسطورة تتحدث عن الصراع بين الإله والإنسان والشيطان، ونود هنا أن نضع نقطتين على حرف مضئ:

---

٦٢ انظر كتابنا: الإنسان بين الصحوة والسقوط ص٣٢ ــ ٣٧بتصرف ط/١ ١٩٩٨.

أولهما: أنه مع إيماننا بأن المخزون المعرفي لا بد أن يكون له تأثير على الكاتب، ولا يمكن للكاتب أو المفكر أن ينفصل عنه في رؤيته وحكمه على الأشياء، مع إيماننا بكل هذا إلا أننا لن نحاكم القوم إلى أسطورة قديمة وإن كان حديثهم عن الإسلام والمسلمين يشبه الأحاديث عن الأساطير، فهم كثيرا ما يتحدثون عن الإسلام والمسلمين وكأنهم يتحدثون عن مخلوقات أو كائنات تعيش في كوكب آخر.

ثانيهما: أننا لا نود أن نفتح صفحات طويت، أو نركز على خطاب التقاطع كما أشرنا من قبل، غير أننا مضطرون للدفاع عن الحقائق التي برع الآخرون في قلبها، وأصروا —ولا يزالون مصرين— أن يضعوننا (دينا وحضارة وبشرا) في قفص الاتهام، وقد أدبنا قرآننا بقول الله سبحانه:" (لا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إلَّا مَنْ ظُلِمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعاً عَلِيماً) (النساء: ١٤٨). ومن ثم سننظر معا سريعا وعلى عجل في كتابهم المقدس باعتباره المصدر الأساس في المكون المعرفي لثقافتهم عن الآخر؟ وكيف ينظرون إليه؟ وهل يعترفون به ويتعايشون معه؟ وهل هذا المصدر يتحدث عن السلام والمحبة دائما؟ وماذا عن التطرف والعنف وثقافة الكراهية لديهم؟

وليسمح لنا القارئ أن نستعرض بعض ما عند القوم حتى تكتمل الصورة ويستطيع القارئ أن يقارن.

وفي التوراة والإنجيل حديث موثق جاء فيه:

في سفر الخروج: "إياك أن تعقد معاهدة مع سكان الأرض التي أنت ماض إليها لئلا يكون شركا لكم ، بل اهدموا مذابحهم واكسروا أنصابهم واقطعوا أشجارهم المقدسة ، إياكم أن تعقدوا معاهدة مع سكان الأرض" (٦٣).

وجاء في سفر العدد: "فخرج موسى والعازار و كل قادة إسرائيل لاستقبالهم، فأبدى سخطه على قادة الجيش وقال لهم: لماذا استحييتم النساء؟ فالآن اقتلوا كل ذكر من الأطفال، واقتلوا أيضا كل امرأة ضاجعت رجلا" (٦٤).

---

٦٣ سفر الخروج (١٥ – ١٢) الإصحاح ٣٤:

٦٤ سفر العدد (١٧ – ١٣) الإصحاح ٣١

وفي الوقت الذي يؤكد نبي الإسلام على حرمة الدماء والأموال والأعراض لكل البشر ويؤكد على أداء الأمانات لأهلها مهما كانوا، يؤكد الآخرون أيضا على خيانة الأمانة وسلب الآخرين لحقوقهم وطردهم من أرضهم فقد جاء في سفر الخروج:
"وأعطى الرب نعمته للشعب في عيون المصريين حتى أعاروهم فسلبوا المصريين" (٦٥).
"وقال الرب لموسى في سهول مو آب، أوصى بنى إسرائيل وقل لهم: إنكم لابد عابرون نهر الأردن نحو أرض كنعان، فاطردوا جميع أهل الأرض من أمامكم ، ولكن إن لم تطردوا أهل الأرض من أمامكم يصبح الباقون منهم أشواكا في عيونكم و مناخس في جوانبكم" (٦٦).

والاعتراف هو سيد الأدلة في لغة القانون، والقوم يعترفون مفتخرين بعمليات الإبادة الجماعية التي ارتكبوها في حق الشعوب فيقولون "واستولينا على جميع مدنه، وقضينا في كل مدينة على الرجال والنساء والأطفال فلم ينج حي منهم" (٦٧).
"فدمرناها كما فعلنا بمدن سيحون وقضينا على الرجال والنساء والأطفال" (٦٨).
"فإنكم تحرمونهم ولا تقطعوا لهم عهدا، ولا ترفقوا بهم ولا تصاهروهم، ولكن هذا ما تفعلونه بهم: اهدموا مذابحهم وحطموا أصنامهم وقطعوا سواريهم واحرقوا تماثيلهم"(٦٩). "وتستأصلون جميع الشعوب الذين يسلمهم الرب إليكم، فلا تشفقوا عليهم ولا تعبدوا آلهتهم لأن ذلك شر لكم" (٧٠).
"واذا أضلك سرا أخوك ابن أمك أو ابنك أو بنتك أو زوجتك المحبوبة أو صديقك الحميم قائلا لنذهب و نعبد آلهة أخرى غريبة عنك وعن آبائك، فلا تستجب له ولا تصغ إليه، ولا تتستر عليه، بل حتما تقتله، كن أنت أول قاتليه، ثم يعقبك بقية الشعب،

---

٦٥ سفر الخروج (٢٦) الإصحاح ١٢ – سفر الخروج

٦٦ سفر العدد (٥٥-٥٠) الإصحاح ٣٣ .

٦٧ سفر التثنية الإصحاح ٢ (٣٥-٣٤)

٦٨ سفر التثنية الإصحاح ٣

٦٩ سفر التثنية الإصحاح٧ (٥-٣)

٧٠ سفر التثنية ١٦الإصحاح ٧

ارجمه بالحجارة حتى يموت" (٧١). "ومن يرفض متمردا تنفيذ حكم الكاهن أو القاضي فإنه يقتل، وبذلك يستأصل الشر من إسرائيل" (٧٢).

ويبدو أن سياسة الحصار وتجويع الشعوب سياسة قديمة لأنها في نظرهم وسيلة لقهر الآخر واستعباد الشعوب فقد جاء في كتبهم:

"ادعوها للصلح أولا، فان أجابتكم واستسلمت ، فكل الشعب الساكن فيها يصبح عبيدا لكم، وان أبت الصلح، فاقتلوا جميع ذكورها بحد السيف، وأما النساء والأطفال والبهائم وكل ما فى المدينة فاغنموها" (٧٣).

"أما مدن الشعوب التي يهبها الرب إلهكم لكم ميراثا ، فلا تستبقوا فيها نسمة حية، بل دمروها عن بكرة أبيها" (٧٤).

"لا تتقاضوا فوائد عما تقرضونه لإخوتكم من بني إسرائيل، سواء كانت القروض فضة أو أطعمة أو أي شئ آخر، أما الأجنبي فأقرضوه بربا" (٧٥).

"ودمروا المدينة واقضوا بحد السيف على كل ما فيها من رجال ونساء وأطفال وشيوخ حتى البقر والغنم والحمير" (٧٦).

وتحت عنوان "رسم خطة الهجوم على عاى" "ولدى استيلائكم على المدينة ، تضرمون فيها النار كأمر الرب" (٧٧).

"واقتحموا المدينة واستولوا عليها وأحرقوها بالنار ، ففتك بهم الإسرائيليون فلم ينج منهم أحد، وفنوا جميعا بحد السيف، فكان جميع من قتل في ذلك اليوم من رجال ونساء اثني عشر ألفا وهم جميع أهل عاى، وهكذا أحرق يشوع عاى وحولها إلى تل خراب

---

٧١ سفر التثنية ٦ــ ١٠ الإصحاح ١٣

٧٢ سفر التثنية ١٢ الإصحاح ١٧

٧٣ (١٠ــ ١٥) سفر التثنية الإصحاح ٢٠

٧٤ (١٧ – ١٦) الإصحاح ٢٠ سفر التثنية

٧٥ (٢٠ – ١٩) الإصحاح ٢٣ – سفر التثنية

٧٦ (٢١) الإصحاح ٦ – سفر يشوع

٧٧ الإصحاح ٨ – سفر يشوع

أبدي الى هذا اليوم" (٧٨). "واستولى يشوع في ذلك اليوم على مقيدة وقتل بالسيف ملكها وكل نفس فيها ، لم يفلت منهم ناج ، فأسلمها الرب هي أيضا إلى يد إسرائيل مع ملكها ، فدمرها وقتل كل نفس فيها بحد السيف فلم يفلت منها ناج ، ودمروها وقتلوا كل نفس فيها بحد السيف، فقضى يشوع عليه وعلى جيشه فلم يفلت منهم ناج ، واستولوا عليها ودمروها مع بقية ضواحيها ، وقتلوا ملكها وكل نفس فيها بحد السيف فلم يفلت منها ناج ، بل قضى على كل حي كما أمر الرب إله إسرائيل" (٧٩).

"وقضوا عليهم بحيث لم يفلت منهم ناج ، وفعل بهم يشوع كما أمر الرب، فعرقب خيولهم وأحرق مركباتهم بالنار ، واقضوا على كل نسمة بحد السيف فلم يبق فيها حي، وأحرقوها بالنار، ونهب الإسرائيليون لأنفسهم كل غنائم تلك المدن ، أما الرجال فقتلوهم فلم يبق منهم حي" (٨٠).

"ولكن إذا ارتددتم والتصقتم ببقية هذه الأمم الماكثين معكم ، وصاهرتموهم واختلطتم بهم وهم بكم ، فاعلموا يقينا أن الرب إلهكم لا يعود يطرد تلك الأمم من أمامكم، فيصبحوا لكم شركا وفخا وسوطا ينهال على ظهوركم ، وشوكا فى أعينكم" (٨١).

"وقال صموئيل (النبي) لشاول: أنا الذى أرسلنى الرب لأنصبك ملكا على إسرائيل، فاسمع الآن كلام الرب: اذهب الآن وهاجم عماليق واقضى على كل رجاله ، لا تعف عن أحد منهم، بل اقتلهم جميعا رجالا و نساءا وأطفالا ورضعا، بقرا وغنما، جمالا وحميرا." (٨٢).

ولعل خير – أو شر– ما نختم به تلك الأوامر الإلهية قصة مهر نبي الله داود من ميكال بنت شاول الملك كما جاء في العهد القديم:

---

٧٨ (٢٠ –٢٨) الإصحاح ٨ – سفر يشوع

٧٩ (٤١– ٢٨) الإصحاح ١٠ – سفر يشوع

٨٠ (١٤ – ٨) الإصحاح ١١ – سفر يشوع

٨١ (١٣ – ١٢) الإصحاح ٢٣ – سفر يشوع

٨٢ (٣ – ١) الإصحاح ١٠ – سفر صموئيل الأول

"فقال شاول لهم: هذا ما تقولونه لـــداود: إن الملك لا يطمع فى مهر ، بل فى مـــائة غلفة (٨٣) من غلف الفلسطينيين ، فابلغ عبيد شاول داود بمطلب الملك ، فراقه الأمر ، ولا سيما فكرة مصاهرة الملك وقبل أن تنتهي المهلة المعطاة له ، انطلق مع رجاله و قتل مئتي رجل من الفلسطينيين ، وأتى بغلفهم ووضعها كاملة لتكون مهرا لمصاهرة الملك ، فزوجه شاول عندئذ من ابنته ميكال" (٨٤).

هذا ما جاء في العهد القديم، فماذا عن العهد الجديد؟ وهل هو يتحدث عن المحبة دائما ولا ذكر فيه لحرب أو قتال؟ لنستمع إلى ما نقله إنجيلهم على لسان سيدنا المسيح عليه السلام في إنجيلهم: "لا تظنوا أني جئت لألقي سلاما على الأرض، ما جئت لألقي سلاما بل سيفا)(٨٥)، ويقول: "جئت لألقي نارا على الأرض ، فماذا أريد لو اضطرمت؟"(٨٦) ويضيف: " أما أعدائي أولئك ، الذين لم يريدوا أن أملك عليهم ، فأتوا بهم إلى هنا ، واذبحوهم قدامي "(٨٧)، ويستطرد قائلاً: " من ليس معي فهو علي"(٨٨)، هل يمكن بعد هذا الكلام أن نصف السيد المسيح عليه السلام ، ونصف المسيحية التي جاء بها بالإرهاب والعنف ، مع أن تاريخ أوروبا يشرح ذلك ويشهد به؟ إلا أننا نسارع في الإجابة بالنفي طبعا لأن المسيح والمسيحية الحقيقية لم تأت بذلك أبداً ، فهل بقي بعد هذه النصوص حديث عن الإرهاب والعنف؟ وهل يمكن لعاقل يحترم نفسه وضميره بعد معرفة الحقيقة إلا أن يهتف بسلامة موقف الإسلام وإنسانيته ورحمته بالآخرين وتسامحه معهم.

* * *

---

٨٣ المراد بالغلفة: هنا هو قطع العضو الجنسي للذكر بعد قتله طبعا .

٨٤ (٢٧ – ٢٥) الإصحاح ١٨ – سفر صموئيل الأول

٨٥ العهد الجديد ، إنجيل متى ١ ، الإصحاح العاشر – ٢٣ .

٨٦ العهد الجديد ، إنجيل لوقا ٣ ، الإصحاح الثاني عشر – ٤٩ .

٨٧ العهد الجديد ، إنجيل لوقا ٣ ، الإصحاح التاسع عشر – ٢٧ .

٨٨ العهد الجديد ، إنجيل لوقا ٣ ، الإصحاح الحادي عشر – ٢٣.

الخلاصة:

- أن الإسلام هو الذي استبقى الحضارة الإسلامية وسط العواصف شامخة وإن انصرف الناس عن أهلها وتنكرت لهم سبل الحياة.
- أن البعد المعرفي ينشئ لدى المسلم التزامًا أخلاقيًّا تجاه الكون وتجاه البيئة والوجود كله.
- أن الحضارات بقدر ما تحمل من قيم العدل والكرامة والمساواة والحرية، بقدر ما تكون مناعتها ومقاومتها لعوامل الفناء.
- أن أخطر ما يصيب الحضارة بشيخوخة مبكرة تهددها بالتفتت والزوال، هو سيطرة المطامع وسعارالشهوات حين ينطلق بغير حدود أو قيود، ومن ثم تبدأ عمليات الانحسار والانكسار في الخط البياني نحو الهبوط والتدني، وهذه هي مرحلة الأفول ومن ثم تعقبها مرحلة السقوط.
- أن شرط الإقلاع الحضارى والخروج من التخلف أن يتعرف المسلم على سنن الله في الكون، وأن يتعرف على سنن الله في الخلق، كما يتعرف على الأمر التكليفي.
- أن القوانين التى تحكم مسيرة الأحياء والجمادات والأمم والحضارات، لا تنفصل ولا تناقض القوانين التى تحكم الفطرة الإنسانية، وكلاهما من الواجبات التى تتطلب عملية الإقلاع الحضارى معرفته والبراعة فيه.
- أنه لابد من العمل على محور المصلحة المشتركة في حماية الكوكب الأرضي مما يتهدده من تغييرات مناخية نتيجة احتراق طبقة الأوزون، وهو محور يمكن أن تلتقي على أرضيته كل شعوب الكرة الأرضية، كما أنه لابد من العمل على المحور الإنساني الذي يؤكد على أن البشر جميعا يشتركون معا في أصل الشجرة الإنسانية إذا جاز التعبير، أي في المعنى العام للإنسان بغير تحديد اللون أو الجنس أو الدين.
- أن الأديان السماوية الثلاثة تتمتع بوحدة المصدر، وأن الإلهام فيها يكاد يكون واحدا، وأن الغاية منها مطلق الخضوع والانقياد لله تعالى، وإن اختلفنا بعد ذلك في الفروع والتفاصيل، وهذا بُعدٌ جديدٌ في توسيع الدائرة الإيمانية، يشكل قفزة نوعية تفتح الأبواب والنوافذ لأفق أوسع وأرحب في عالم العلاقات الإنسانية.
- المكون المعرفي في الحضارة الإسلامية حريص في ميدان الحياة العامة على تكريم الإنسان في شخص غير المسلم، واحترام شخصية المخالف له، ورعايته حتى ولو كان مشركا وليس من أهل الكتاب.

* * *

نتائج البحث:

١. اتضح من خلال البحث أن المكون المعرفي في الحضارة الإسلامية هو سر بقائها وهو سر مقاومتها لكل عوامل الفناء والذوبان.
٢. اتضح من خلال البحث أن المكون المعرفى الذى يشكل فيه الإسلام اللب والقلب، يوجه الحضارة صوب الوفاق والتعايش بل والتناغم مع الحضارات الأخرى باعتبارها نتاجا إنسانيا لا يجوز أن تحرم منه المجتمعات.
٣. أن الأديان السماوية الثلاثة، تتمتع بوحدة المصدر، بالإضافة إلى أن الإلهام فيها متقارب جدا إن لم يكن متحدا في غاياته ومقاصده، ومن ثم فالقيم المشتركة هي قيم عالمية، تسعى لتحقيقها كل المجتمعات الحرة، وهي أيضا قيم ليست غريبة على الإسلام وليست بعيدة عنه، بل هي في الرؤية الإسلامية ليست مجرد قيم تخضع للخيارالإنساني يفعلها من يشاء أو يتركها، إنما تصنف هذه القيم في رؤية الإسلام كواجبات ملزمة، يتربى عليها الأجيال منذ الصغر، لتتحول بعد ذلك إلى جزء من النسيج العقلي والفكري، الذي ينعكس على السلوك والممارسة في حياقم طواعية واختيارا.
٤. على ضوء ما سبق من المهم أن نفهم معا أن الحضارة الإسلامية بمكوناقما العقدية والثقافية لا تتناقض ولا تتصادم مع الثقافات الأخرى، بل إن التاريخ يثبت أنها احتوت وتضمنت واحتضنت الثقافتين اليهودية والمسيحية، وقد نبغ في ظل الحضارة الإسلامية عباقرة من شتى البلاد والأجناس، قدمتهم الحضارة الإسلامية للعالم، وعرَّفت بهم وترجمت أعمالهم، حتى بعد أن مات بعضهم، وكاد تراثه الفلسفي والعلمي أن يضيع في ذاكرة النسيان، فلما جاءت الثقافة الإسلامية بما تحمله من تسامح وتقدير للمواهب قدمت هؤلاء للعالم، وكان منهم سقراط وأرسطو، برغم اختلاف الجنس واللغة والدين.
٥. عندما تأخذ الحضارات والنظم موقفا معاديا للدين ولا تثق بقوته وقدرته في خلق قيم الحب والتسامح والعدل والحرية، فسوف تقع في المحظور الأكبر وتدمر نفسها بنفسها دون الحاجة إلى إرهاب مستورد، ومن ثم فلا حاجة لأجهزة القمع والضبط والمراقبة؛ لأنها لن تستطيع فرض الالتزام الخارجي على وعي فقد في ذاته كل ضابط داخلي.

٦. أن أقوى أنواع الضبط للسلوك الإنساني هو الضبط الإرادي، وهذا الضبط لا يمكن أن ينتج إلا من الأخلاق التى ترتبط بقيم يدعمها الإيمان الجامع بها، وهي أخلاق لا تتبدل حسب الطلب وإنما تبقى ثابتة لأنها هي التى تحفظ للجماعة الحد الأدنى من التوازن، كما أنها تمد المجتمع بالقواعد التى تضبط سلوك الناس وتوجه ممارساتهم.

٧. إذا كانت الممارسات الدينية تقوم بمجموعة من الوظائف الحساسة وفي مقدمتها: أنها تمنح الناس مبررا مقبولا لحياتهم، وتخفف عنهم ضغط ديناميات التفتت وتحطيم البنية الفردية والاجتماعية، وتركز في الوعي العام على ضرورة الحفاظ على مفهوم الأسرة وحمايته من محاولات تغيير عناصر تكوينها، وضياع هدفها العام، بجانب أنها الرحم الذي يحمل الأخلاق النبيلة، ولا تتولد عوامل الضبط الإرادي والمراقبة والالتزام إلا منه، فضلا عن دورها الحيوي في امتصاص صدمات الفشل في ميدان الحياة ومقاومته من خلال التكافل النفسي والاجتماعي، إذا كانت الممارسات الدينية لها كل هذا الدور الفعال، فإن الحرية الدينية إذًا تصبح ضرورة اجتماعية ونفسية، وتربوية وأمنية أيضا، لأنها تشكل حينئذ أعلى وأغلى رأسمال معنوي تعيش عليه الحضارات وتحفظ به توازنها.

٨. أن تدعيم الشعور الديني يصبح ضرورة أساسية لتدعيم الشعور الأخلاقي، وتقوية الشعور بالواجب والالتزام بقضايا الجماعة والتضحية في سبيلها، ولقد استطاعت دول كثيرة أسيوية وغربية أن تحقق حرية المجتمع، وأن تطور نظمه الاجتماعية والأخلاقية والاقتصادية بما يتلاءم مع العصر، وأن تتكيف مع الحقيقة الروحية وتتفاهم معها، وأحيانا تستند إليها دون أن تضطر إلى مصادرة الدين وإعلان الحرب عليه.

٩. من المعروف أن القيمة عندما تستمد قداستها من العمق الديني فإن حرية ممارستها تنبعث من أقوى المشاعر تأثيرا في حياة الإنسان، وسيادته مصدرا لحرية الأمة وسيادتها، وبذلك تكون هذه الحرية –لا نقيضها– هي النبع للشعور بالالتزام الأخلاقي أي بالواجب تجاه الجماعة والأمة والتضحية في سبيلها.

١٠. ونحن نحاول أن نتجنب الصراع والصدام الحضارى لابد أن نتفق أن أول خطوة نحو صياغة فلسفة لحياة أكثر تفاهما وتسامحا يجب أن تكون في إعادة اكتشاف كل منَّا

للآخر، كما أن عملية تبادل المعلومات والخبرات حول الذات والآخر تعنى لا محالة تبدلا مستمرا في أفكار الاثنين معا، وعندما يكتشف كل منًا أخاه سنكتشف جميعا كم هي واسعة وشاسعة ورائعة حجم الشراكة الحياتية بين الإنسان والإنسان، وكم يمكن أن تكون تلك الشراكة متناسقة ومتوافقة ومنسجمة، وبعيدة أيضا عن الميل المندفع نحو الإخضاع والسيطرة، برغم تنوع واختلاف الثقافات والديانات والأجناس.

١١. من المعروف لدى علماء البيولوجيا أن الطبيعة الاجتماعية والبيولوجية للإنسان تشكل جهازا غاية في الوحدة ومن ثم فلا فرق بين إنسان وإنسان، بصرف النظر عن البيئة التى نشأ فيها، في الشرق أو الغرب، في الشمال أو الجنوب، وإذا كان الأمر كذلك فمن المهم أن يحدث هذا التقارب على مستوى الأفكار في الإنسان ذاته، وأخطر ما يهدد الإنسان أو الجماعة ويعزلها هو الشعور بالاكتفاء الذاتي فكريا، وعدم الرغبة في قراءة الآخر والتعرف عليه، وهو شعور خطير ومكلف قد يؤدي للتقوقع على الذات، أو للصدام مع الآخر والخروج عليه، ما دام سوء الفهم وسوء الظن هو سيد الموقف.

١٢. لابد أن نعترف –آسفين– أن الإعلام قد ساهم ولا زال يساهم بنصيب ضخم في حدوث هاتين الآفتين: سوء الفهم، وسوء الظن، والذين يعيشون في مجتمعات الغرب يعرفون ذلك جيدا. وتلاشيا لحدوث هاتين الآفتين (سوء الفهم وسوء الظن) فلابد من الانفتاح على الآخر، والاقتراب منه، ومعرفة مكوناته ومقوماته ودوافعه وبواعثه، وألا تترك تلك القضايا الكبرى لمؤسسات إعلامية معروفة بتحيزها وكراهيتها للمسلمين تشعل فتنة الصراع بالتحريض وإثارة الكراهية ضد الآخر، كما يحدث مع المسلمين منذ الصباح الباكر وحتى ساعة متأخرة من الليل في كل يوم، وتلك حقيقة يعاني منها كل مسلم يعيش في مجتمعات الغرب أيضا، ومن الغريب أن يحدث هذا تحت سمع وبصر كل أجهزة الرقابة، الأمر الذي يوحي بأن هناك اتفاقا ضمنيا على هذا الهجوم، أو على الأقل فإنه يحظى برضى بعض الشرائح السياسية المتعصبة لأنه يتوافق مع الهوى السياسي لهم، وإن كان يناقض الصالح العام والمبادئ التى يدعو إليها كل العقلاء، وهي المبادئ التى يقوم عليها ويتميز بها كل مجتمع متحضر يحترم التعددية الثقافية ويعمل من أجل التناغم الاجتماعي والانسجام الحضاري بين الشعوب.

١٣. أن الحرص على إثارة الصراع بين الحضارات يمثل علامة من علامات الانتكاس الحضاري، الذي يهدف إلى نفي الآخر، وقولبته تحت القهر والضغط والإكراه، وإنه لمن العار والخداع أن يظهر هذا النوع من العنصرية واغتيال الخصوصيات في وقت تمتلئ فيه الدنيا بضجيج وهتاف حول الديمقراطية وحقوق الإنسان.

١٤. إذا كان الإرهاب يهدد كل هذه القيم فهو ليس جديدا، وإنما هو قديم قدم الإنسان ذاته، فمنذ اعتدى قابيل على أخيه هابيل بدأت بذور الشر في أرض الحياة، وليس من المقبول ولا من المعقول أن يجتهد الخطاب السياسي لبعض الدول، ومعه أيضًا الخطاب الإعلامي في بعض البلاد، ليحدث ارتباطا شرطيا في نَفْسِ المتلقي بين المسلم والإرهاب، ويصبح لزاما على كل مسلم في الصباح والمساء أن يستغفر من ذنب لم يرتكبه، وأن يعتذر عن فعل لم يفعله، وأن يشجب ويستنكر الإرهاب، كي يثبت أنه مسلم معتدل وليس لديه قابلية الإرهاب في يوم ما.

١٥. وإذا كانت حقائق التاريخ البشري تؤكد لنا أن الإرهاب ليس جديدا، وليس له جنس ولا دين ولا وطن، فإن استعراض هذه الحقائق في سياقها العلمي العادل يؤكد أيضا أن المسلمين عبر عصور طويلة وإلى تلك اللحظة كانوا وما زالوا هم أول ضحاياه، وأن الجديد في الموضوع ليس هو الإرهاب ذاته، وإنما الجديد هو الشعور به بعدما بدأت بعض الدول التى كانت وما زالت تمارسه تتذوق شيئا من مآسيه ومرارته، فإذا حدث وارتكب بعض الأفراد من جنس معين أو حتى من دين معين بعض الحماقات، فهل يكون رد الفعل هو وصم هذا الدين وأتباعه بالتطرف والإرهاب والعنف ...؟، ثم هل يتمادى رد الفعل هذا ليتحول إلى صراع حضارات، ويشكل انتكاسا في الحريات وتراجعا عن الحقوق الشخصية، وهدمًا لقيم العدالة والديمقراطية، تلك القيم التى تمثل منارات امتازت بها عصور التنوير ودفعت البشرية في سبيلها ثمنا غاليا؟.

* * *

الخـــاتمة

أمَا وأن لكل شئ بداية فإن لكل شئ نهاية، فسبحان الذي لا بداية له ولا نهاية

وبعد

قلت وأقول: لانميل أبدا إلى أن نفتح جراحا قديمة، وإن كان نزيف الجراح لم يتوقف، والجانب الآخر يصر إصرارًا عجيبا على اتهامنا واتهام ديننا وشريعتنا بما ليس فينا، ومتابعة بسيطة لما يبث في وسائل إعلامه تُظهر حجم التعصب وضخامة الافتراء، ومع أننا لا نعبأ كثيرا لهذا الهجوم لكثرة ما فيه من أباطيل وخلوه من الحقائق، إلا أن ناسا كثيرين ممن لا يعرفون الإسلام ولم تتح لهم فرصة التعرف عليه قد وقعوا ضحايا لتلك الحملات المغرضة وكانت إصابتهم شديدة وجراحهم غائرة، حتى أضحى من الواجب على كل مسلم عموما، وعلى المثقفين الشرفاء بوجه خاص، وعلى العلماء الجامعيين والمجمعيين على وجه أخص أن ينصفوا الحقيقة، وأن يشرحوا الملابسات، وأن يعملوا جاهدين على تحصين القارئ ليكون في مأمن من الخيانة الثقافية والاغتيال العقلي الذي كثيرا ما يمارس من قِبَل هؤلاء، لذا فقد آثرت أن أستجيب للرغبة الكريمة وأن أشارك بالكتابة والحديث في هذا الموضوع رغم مرارته..

إنصافا للحقيقة أولا.

وأداء لواجب الإسلام عليّ ثانيا.

وحماية لحـــق القارئ في أن يرى الصورة بغير رتوش ثالثا.

فهل يمكن أن يتذكر كل منا فضائل الآخر، ويحرص على استثمارها لكل ما هو صالح وبناء.

وهل يكف الصغار المهجوسون بالنواقص والمسكونون بالأحقاد والعورات عن إثارة العنصرية والكراهية، والحديث عن الضغط والإكراه والطرد والإقصاء.

هذا ما نتمناه وندعو إليه، ونعمل على تحقيقه دائما، ونفتح أيدينا لتصافح كل يد شريفة تمتد بالخير للناس جميعا، كما نفتح صدورنا وقلوبنا للحق والحقيقة مهما كان مصدرها، وشوقنا أن يعيش العالم في سلام، وأن ينعم الناس بالأمن، وأن يرتفع الشعار الحقيقي "المجد لله في الأعالي وفى الناس المسرة، وعلى الأرض السلام. والحمد لله رب العالمين.

والله هو الهادي إلى سواء السبيل

(... رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ) (النمل: من الآية١٩)

الباحـــث

أ.د إبراهيـــم أبو محمد

ســـــيدني في:

٢٠ محـــــرم ١٤٢٨ هـــ / ٨ فبراير ٢٠٠٧ م

* * *

المصادر والمراجع

أولا: القــرآن الكريـــــم

ثانياً: السنـــة النبويـــــة

١. أبو الحسين، مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري صحيح مسلم

٢. البخاري، محمد بن إسماعيل صحيح البخارى القزويني الحافظ أبي عبد الله محمد بن يزيد ابن ماجه .

٣. ابن حنبل، الإمام أحمد بن محمد مسند المجلد الثاني.

٤. البيهقي، الحافظ السنن الكبرى للبيهقي، جـ ٥.

٥. الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة بن موسى بن الضحاك السلمي سنن الترمذي

٦. الدارمي، أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن برهام سنن الدارمي

٧. الطبراني، أبو القاسم الحافظ الكبير الأوسط

٨. الطبراني، أبو القاسم الحافظ الكبير المعاجم الثلاث، فيض القدير شرح الجامع الصغير، دار الفكـــــر.

٩. العسقلاني، ابن حجر فتح البارى شرح صحيح البخارى

١٠. المنذري، الحافظ، مختصر صحيح مسلم، تحقيق الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٩٧٣، ط٢

١١. المناوي الإمام، فيض القدير شرح الجامع الصغير، دار الفكر، جـ ٥.

١٢. النسائي، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب سنن النسائي.

ثالثاً: مصادر أخرى:

١. ابن عابدين، محمد أمين، رد المختار على الدر المختار شرح تنوير الأبصار، تحقيق وتعليق عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط/١، ١٩٩٤، جـ ١ .

٢. أبـــو محمد، د. إبراهيم، أزمة الأيديولوجيات وضياع الشعوب "دراسة".

٣. أبـــو محمد، د. إبراهيم منهج الإسلام في تحقيق الأمن رسالة دكتوراه غير منشورة – كلية أصول الدين بالقاهرة جامعة الأزهر سنة ١٩٨٧

٤. أبـــو محمد، د. إبراهيم، دعـــوة إلى التفكيـــر، أبو ظبي للطباعة والنشر، ط/٢ ١٩٩٥.
٥. أبـــو محمد، د. إبراهيم، الإنسان بين الصحوة والسقوط، الناشر العربي، سيدني، ط/٢، ١٩٩٩.
٦. أبـــو محمد، د. إبراهيم، من أنت، دار الشروق، القاهرة، ط/١، ١٩٩٩.
٧. أبو يوسف، الخراج .
٨. أرنولد، توماس، الدعوة إلى الإسلام .
٩. أنيس، د. إبراهيم وآخرون، المعجـــم الوســـيط، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٧٢، ط/٢.
١٠. البلاذري ،أحمد بن يحيى بن جابر بن داود أبو الحسن فتـــوح البلـــدان
١١. تشومسكي، نعوم، ماذا يريد العم سام، تعريب المهندس: عادل المعلم، دار الشروق ط/ الأولى ١٩٩٨.
١٢. جارودي، روجيه، الإرهاب الغربي ج١ الفصل الثالث نشأة المتوحشين ترجمة د. ناهد عبد الحميد مكتبة الشروق الدولية طبعة أولى ٢٠٠٤
١٣. جارودي، روجيه، حفارو القبور ترجمة عزة صبحى مطبعة دار الشروق الطبعة الثالثة ٢٠٠٢
١٤. جمال، محمد أحمد، لمحات في الثقافة الإسلامية
١٥. الخطيب عمر عودة لمحات في الثقافة الإسلامية مؤسسة الرسالة ط/٨ ١٩٨٤
١٦. داودي، صفوان عدنان، مطالب أولي النهى جـ ٢.
١٧. دراز، د. محمد عبد الله، الدين، ١٩٦٩.
١٨. روهلنك، الكنز الموجود في قواعد التلمود، ترجمة د. يوسف نصر الله.
١٩. شلبي د. عبد الجليل رد مفتريات على الإسلام الدكتور دار القلم ط/١٩٨٢
٢٠. طبارة، عفيف، روح الدين الإسلامي، دار العلـــم للملايين، بيروت، ط/٢٧، ١٩٨٨.
٢١. الطبري، تاريخ الطبري، دار المعارف بمصر، جـ ٣.
٢٢. بريزينسكي، زبيجنيو، عالم خارج حدود السيطرة كتاب نشرته جريدة

الاتحاد الإماراتية، عرض وتلخيص : هبة الإمام الحلقة ٤ ـ٦ ص٢٣ عدد الإثنين ١٤ فبراير ١٩٩٤

٢٣. عبد الغني، مصطفى، حقيقة الغرب بين الحملة الفرنسية والحملة الأمريكية، مركز الحضارة العربية،٢٠٠١

٢٤. العسكري أبو هلال الفروق في اللغة، تحقيق لجنة إحياء التراث العربي الطبعة الرابعة دار الآفاق الجديدة بيروت ١٩٨٠

٢٥. عمارة د. محمد: الإسلام والتحديات الجديدة ط/١ ندوة الثقافة والعلوم دبي١٩٩٣

٢٦. عمارة د. محمد، الإسلام والمستقبل نشر دارالشروق الطبعة الثانية ١٩٨٦

٢٧. العهـــد القديـــم، سفر المكابيين ١٥ – ٢٤

٢٨. العهد القديم والعهد الجديد

(سفر الخروج (١٥ – ١٢) الإصحاح ٣٤

ـ سفر العدد (١٧ – ١٣) الإصحاح ٣١

ـ سفر الخروج (٢٦) الإصحاح ١٢ – سفر الخروج

ـ سفر العدد(٥٥–٥٠) الإصحاح ٣٣ –

ـ سفر التثنية الإصحاح ٢ (٣٥–٣٤)

ـ سفر التثنية الإصحاح ٣

ـ سفر التثنية الإصحاح٧ (٥–٣)

ـ سفر التثنية٩ الإصحاح ٧

ـ سفر التثنية ١٦الإصحاح ٧ ـ سفر التثنية ٦ـ ١٠ الإصحاح ١٣ ـ سفر التثنية ١٢ الإصحاح ١٧ ـ(١٠ـ ١٥) سفر التثنية الإصحاح ٢٠ ـ (١٧ – ١٦) الإصحاح ٢٠ سفر التثنية ـ (٢٠ – ١٩) الإصحاح ٢٣ – سفر التثنية ـ (٢١) الإصحاح ٦ – سفر يشوع ـ الإصحاح ٨ – سفر يشوع ـ (٢٠ –٢٨) الإصحاح ٨ – سفر يشوع ـ(٤١– ٢٨) الإصحاح ١٠ – سفر يشوع ـ (١٤ – ٨) الإصحاح ١١ – سفر يشوع ـ١٣ – ١٢) الإصحاح ٢٣ – سفر يشوع ـ (٣ – ١) الإصحاح ١٠ – سفر صموئيل الأول ـ (٢٧ – ٢٥) الإصحاح ١٨ – سفر صموئيل

الأول– العهد الجديد ، إنجيل متى ١ ، الإصحاح العاشر – ٢٣ – العهد الجديد ، إنجيل لوقا ٣ ، الإصحاح الثاني عشر – ٤٩ . – العهد الجديد ، إنجيل لوقا ٣ ، الإصحاح التاسع عشر – ٢٧ –العهد الجديد ، إنجيل لوقا ٣ ، الإصحاح الحادي عشر – ٢٣).

٢٩. الغزالي، أبو حامد الإمام، الاقتصاد في الاعتقاد طبعة القاهرة مطبعة صبيح بدون تاريخ طبع

٣٠. القرافي، الإمام، الفـــــروق، جـــ ٣.

٣١. القرضاوي، د. يوسف، غيـــــر المسلمين في المجتمع الإسلامي، مكتبة وهبة، القاهرة، ١٩٧٧.

٣٢. لوبون، غوستاف، حضارة العرب.

٣٣. الماوردى أدب الدنيا والدين، شرح وتعليق محمد كريم راجح الطبعةالثالثة ١٩٨٤ دار إقرأ بيروت

٣٤. مبروك، نافع، تاريخ العرب.

٣٥. الندوي، أبو الحسن، علامة موقف العالم الإسلامي تجاه الحضارة الغربية دار القلم الطبعة الثانية ١٩٨٠

٣٦. النورسي، الشيخ سعيد العلامة، الكلمات، ترجمة الأستاذ إحسان قاسم الصالحي ص ٨٤٨ الطبعة الأولى ١٩٩٢ مطبعة سولزر استانبول .

٣٧. النورسي، الشيخ سعيد العلامة، المثنوي العربي المجلد الأول تحقيق إحسان قاسم الصالحى دار سوزلر للنشر الطبعة الثانية ١٩٩٤

٣٨. النورسي، الشيخ سعيد العلامة، المكتوبات جزء٢ دار سوزلر للنشر استانبول الطبعة الأولى ١٩٩٢.

٣٩. هيكل، محمد حسنين، الإدارة السياسة في النظام الدولي الجديد محاضرة ألقيت في مؤتمر الإدارة المصرية المنعقد في مدينة الإسكندرية يوم ٢٧ اكتوبر .١٩٩٤ ونشرت في حلقتين جريدة الخليج العدد ٥٦٤٧ والعدد ٥٦٤٨ سنة ١٩٩٤.

الفهرس

رقم الإيداع: ٢٠٠٧/٧٤٠٤

المركز العلمى للطباعة والكمبيوتر

تليفون : ٢٤٢٤٠٤٦٥ – ٠١٠٢٥١٠٩١١